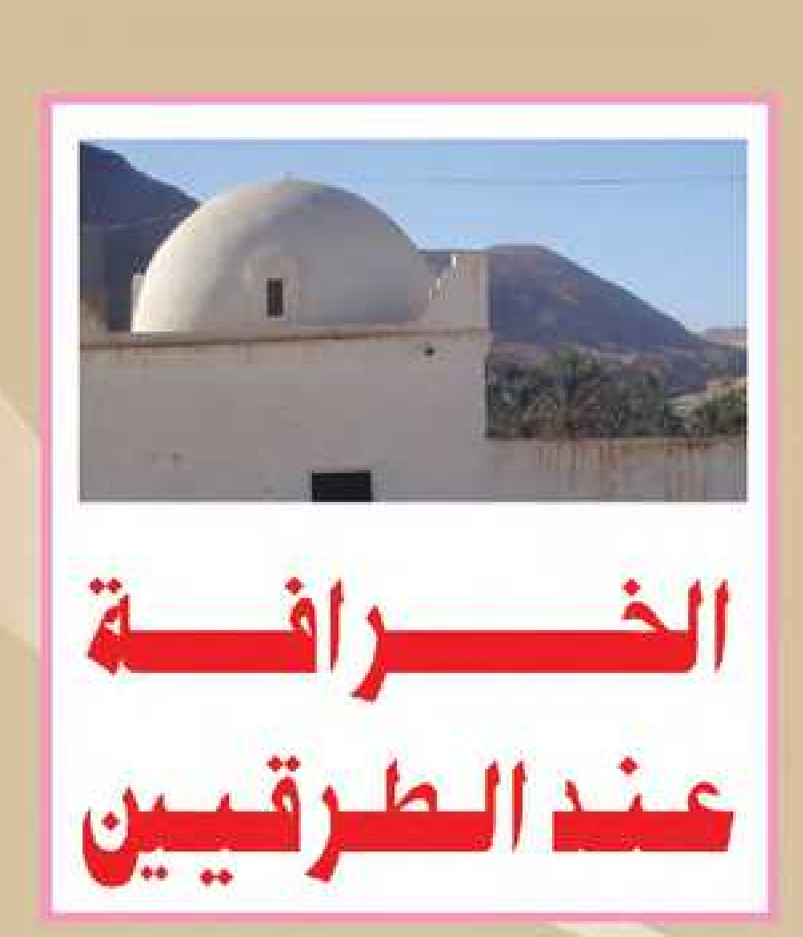
﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاّ مَا أَصْلَحَ أَوَّلَـهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة الخامسة. العدد الثامن والعشرون: ذو القعدة/ذو الحجة 1432هـ الموافق لـ نوفمبر/ديسمبر 2011م



الخرافة عند الطرقيين

براءة السلفية من الحزبية



۞ الوفاء... خلق مفقود

عثمان عيسي

۞ هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم

حسن أيت علجت



۞ الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ودعوته

حسن بوقليل

السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112.6825

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ آل عِمۡرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سُورَةُ الأَحۡزَابِ].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.



مجلة جامعة
تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة

المدير
توفيق عمروني

رئيس التحرير
عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:
عمر الحاج مسعود
عثمان عيسي
نجيب جلواح

التصميم والإخراج الفني:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الطباعة:
مطبعة الديوان

عنوان المجلة:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.
المحمدية. الجزائر

الهاتف والفاكس:
(021) 51 94 63
(النقال) (0559) 06 99 92

التوزيع (جوال):
(0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:
www.rayatalislah.com



افتتاحية

العدل في القول

مدير المجلة

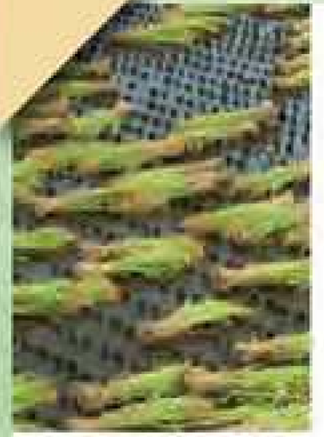
إنَّ ممَّا يُؤسف له كثيرًا أن نقف على كتابات لبعض المخالفين فيها كثير من التَّعسُّف والتَّجنِّي، والتَّقوُّل بالظَّنِّ والإساءة والتَّخمين، بعيدة عن النَّقد النَّزيه، عارية من شفقة النَّاصح الأمين، بل إنَّ أحدهم قد انحطَّ إلى حدِّ التَّبذُّل والإسفاف؛ وبهذا تكون هذه الكتابات والأقوال قد حكمت على نفسها ألاَّ تصنَّف إلاَّ في خانة: «قائل بغير عدل»، وهو زلل عظيم ومرتع وخيم؛ لما فيه من المنافاة الصريحة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾.

وإنَّ الذي نحبُّه لأنفسنا ولإخواننا ألَّا ينطقَ أحدُنا إلَّا بالحقِّ والصَّواب، وللوصول إلى الحقِّ سبيل واحد هو العلم، ولإيصاله إلى الخلق لابدَّ من تسييجه بالعدل والإنصاف؛ لأنَّ الحقَّ ثقيل فلا يثقَّل مرَّةً أخرى بالظُّلم والاعتساف، ومن جميل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ قوله: «المرء خُلق ظلومًا جهولًا، فالأصلُ فيه عدمُ العلم، وميلُه إلى ما يهواهُ من الشَّرِّ، فيحتاجُ دائمًا إلى علمٍ مفصَّل يزولُ به جهله، وعَدل في محبَّته وبُغضه، ورضَاه وغضَبه، وفعلِه وتركِه، وإعطَائه ومنعه، وكُلُّ مَا يقولُه ويعملُه يحتَاجُ فيه إلى عَدلٍ يُنافي ظلمَه، فإن لم يمُنَّ اللهُ عليه بالعلمِ المفصَّلِ والعَدلِ المفصَّلِ، وإلَّا كانَ فيه منَ الجَهلِ والظُّلمِ مَا يخرُج به عن الصِّراطِ المستقيم» [«مجموع الفتاوى» (14/38)].

فعلى كلِّ كاتب أو متكلِّم في أمر أن يحسِّن قصدَه، وأن يحيط به علمًا مفصَّلا لا مجملا، غير مبنيٍّ على الشَّكِّ والظَّنِّ والتَّوهُّم، بل يكون واقفا بنفسه على الحقائق قريبًا منها، ولا يستَند فيها إلى قيل وقال، فإنَّ مَن يَسمعْ يَخل، والبَعيد يسمع الصَّدى لا الصَّوت، وبهذا المسلك يحقِّقُ المرءُ العدلَ المفصَّل في حكمه وخطابه ولو مع أعدائه من الكفَّار والمبتدعة، فكيف مع إخوانه ممَّن يدعو إلى السُّنَّة في زمن الغُربة والفتنة، وما علت منزلة السَّلف ـ رحمهم الله ـ إلَّا بالعلم الصَّحيح والفهم المستقيم وسلوك جادَّة العدل والإنصاف ولو من أنفسهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

فالله يحبُّ العدل في كلِّ حال ومع كلِّ أحد، ولا يسُوغ الظُّلم والاعتساف لمجرَّد الاختلاف؛ وقَد وهِمَ مَن ظنَّ أنَّ الظُّلم يغمد لسانَ الحقِّ، أو يطفئ نوره.

في هذا العدد



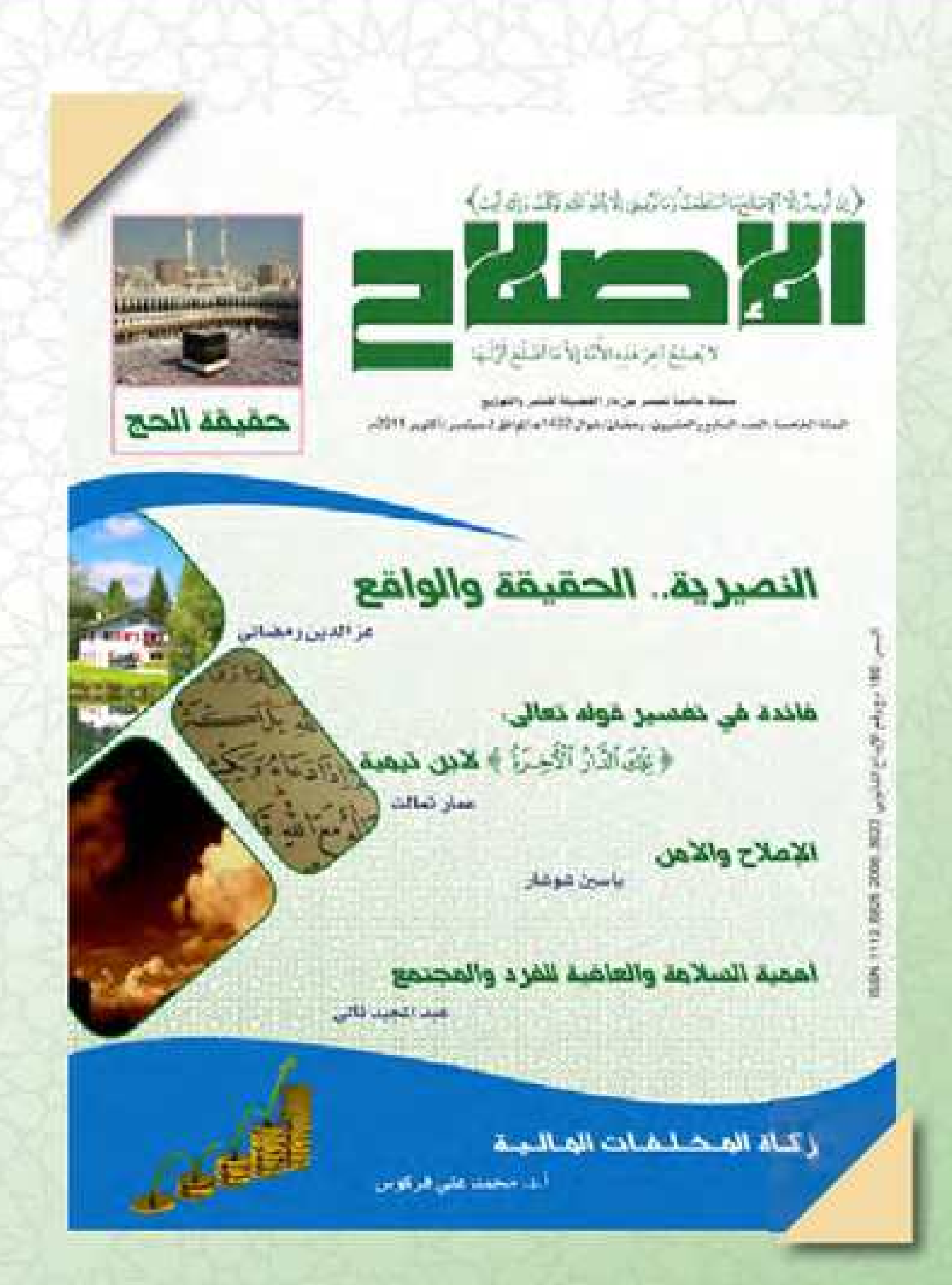


الطليعة
براءة السلفية من الحزبية
التحرير



عقد الجواهر النفيس
المنتقى من الرِّحلات الدَّعويَّة
للإمام العلاَّمة
عبد الحميد بن باديس رحمه الله

العدد السابق

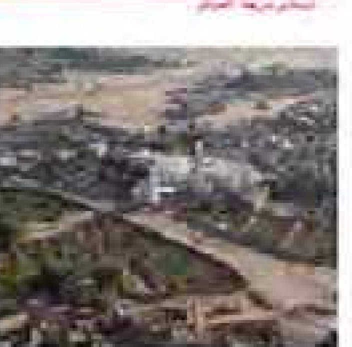


التوحيد الخالص

الخرافة عند الطرقيين

سير الأعلام

الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله ودعوته

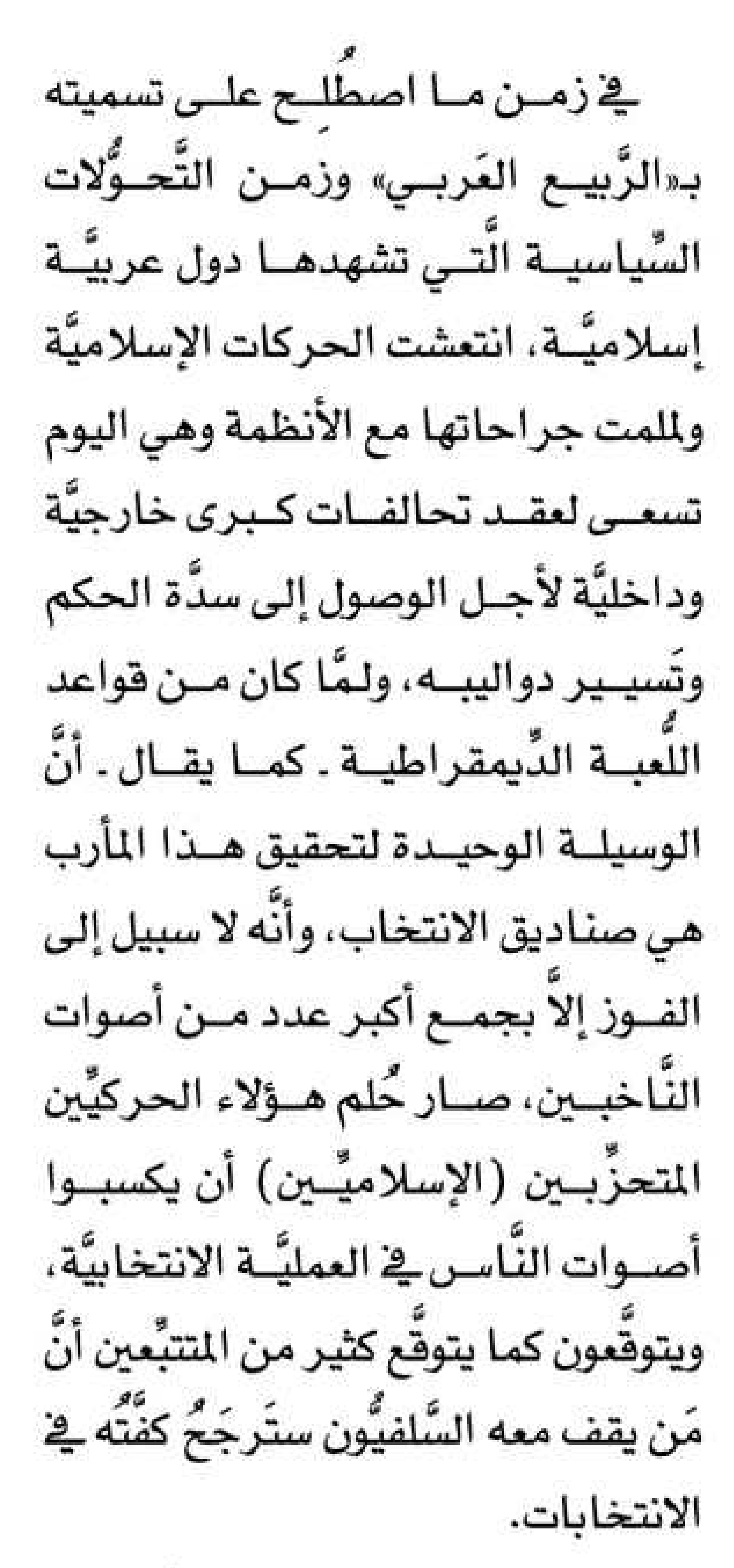


قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحـرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

براءة السلفية من الحزبية

التحرير



في زمـن مـا اصطُلِـح علـى تسميته بـ«الرَّبيـع العَربـي» وزمـن التَّحـوُّلات السِّياسيـة الَّتـي تشهدهـا دول عربيَّـة إسلاميَّـة، انتعشت الحركات الإسلاميَّة ولملمت جراحاتها مع الأنظمة وهي اليوم تسعـى لعقـد تحالفـات كـبرى خارجيَّة وداخليَّة لأجـل الوصول إلى سدَّة الحكم وتَسييـر دواليبـه، ولمَّا كان مـن قواعد اللُّعبـة الدِّيمقراطيـة ـ كمـا يقـال ـ أنَّ الوسيلـة الوحيـدة لتحقيق هـذا المأرب هي صناديق الانتخاب، وأنَّه لا سبيل إلى الفـوز إلاَّ بجمـع أكبر عدد مـن أصوات النَّاخبـين، صـار حُلم هـؤلاء الحركيِّين المتحزِّبـين (الإسلاميِّـين) أن يكسبـوا أصـوات النَّـاس في العمليَّـة الانتخابيَّة، ويتوقَّعون كما يتوقَّع كثير من المتتبِّعين أنَّ مَن يقف معه السَّلفيُّون ستَرجَحُ كفَّتُه في الانتخابات.

لذلـك صرنـا نسمـع كثـيرًا مـن الدَّغدغات وعبارات التَّملُّق الَّتي يطلقها رؤوس هؤلاء الحركيِّـين يخطبون بها ودَّ السَّلفيين، ويستميلونهم في محاولة لنيل رضاهـم وكسـب تأييدهم، ظنًّـا منهم أنَّ ذلـكَ وحـده كاف لإذابة كلِّ خلاف، وإزاحـة كلِّ اختـلافٍ، وكأنَّ المخاطَبِين لقمةٌ سائغةٌ يسهل ابتلاعُها.

فنقول لهؤلاء وأمثالهم: إنَّ الخلاف بين السَّلفيِّين بحقٍّ وبين غيرهم في المنهج والتَّصوُّر، وفي طريقة فهم الدِّين وطريقة التَّعامل مع النُّصوص الشَّرعيَّة، ولو كان الخلاف فرعيًّـا أو شكليًّا لهان الخطب وسهل الأمـر، وأمكن التَّجاوز والتَّطاوع؛ إنَّ السَّلفيِّـين يسلكـون منهـجَ الأنبيـاء ـ عليهـم الصَّلاة والسَّـلام ـ في الإصلاح والدَّعـوة إلى الله، ويجعلـون على رأس الأولويَّات مسألة تَوحيد الله ربِّ العالمين والسَّعي لإزالة مظاهر الشِّرك ووسائله، ومحاربة البدع والخرافات، ودفع الشُّبه والافـتراءات بنفـي تحريفـات الغالين، وتأويلات المبطلين، وانتحالات الجاهلين ليحفظ الإسلام من كلِّ شائبة ودخيل.

وإنَّ السَّلفيِّـين لهـم شـأنٌ آخـر إذ يحكُم تصرُّفاتهم الشَّريعَةُ، فالطَّاعة لله ولرسولـه ﷺ، ويسمعون ويطيعون لولاة الأمـر فيما لا يخالفُ شَرعًـا، إذ لا طاعةَ لمخلـوق في معصيـة الخالـق، كمـا أنَّهم يوالون الصَّالحين ويناصحون المخالفين، ويدعـون إلى الله بالحكمـة والموعظـة الحسنـة؛ ولا يبوِّئون أحدًا منزلةً لم يبوِّءه الله إيَّاها، فالمقدَّم عندهم مَن قدَّمه الله وعظَّمـه وهُـم العلمـاء الحريصون على فهـم مـراد الله ومراد رسولـه ﷺ، كما فهمـه السَّلف رضي الله عنهم، ويبلِّغونـه النَّاسَ، فلا يصدر السَّلفيُّون عن رأي في القَضايا الشَّرعية وبخاصَّة المستَجدَّة منها إلاَّ بعد معرفـة رأي العُلماء؛ لأنَّهـم ورثة الأنبياء وساسَـة الأمم، وسعادة النَّاس وفلاحهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ منوطٌ بالتفافهم حول ميراث النُّبوَّة.

فالسَّلفيون مستَغنـون بدعوتهم عن سائـر الدَّعـوات، لتمسُّكهـم بالطَّريـق المستَقيـم والسَّـنَن القَـويم الَّـذي سلكه السَّلـف الصَّالـح، وهو المنهـج الواضح والمتجَر الرَّابح المأمون العَواقب والنَّتائج، الَّـذي أمَـر الله ورسولُـه باتِّباعـه، قال تعـالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

إنَّ السَّلفيِّين يسلكون منهجَ الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ في الإصلاح والدَّعوة إلى الله، ويجعلون على رأس الأولويَّات مسألة تَوحيد الله ربِّ العالمين والسَّعي لإزالة مظاهر الشِّرك ووسائله، ومحاربة البدع والخرافات، ودفع الشُّبه والافتراءات بنفي تحريفات الغالين، وتأويلات المبطلين، وانتحالات الجاهلين ليحفظ الإسلام من كلِّ شائبة ودخيل

﴿ ١٥٣ ﴾ [سورة الأنعام]، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «المجموع» (149/4): «لا عيبَ على مَن أظهر مذهبَ السَّلف وانتَسب إليه، واعتزى إليه؛ بل يجبُ قَبول ذلك منه بالاتِّفاق، فإنَّ مذهبَ السَّلف لا يكونُ إلاَّ حقًّا».

وعليه؛ فالسَّلفيون ليسوا بحاجة إلى الدُّخول في تحالفات سياسيَّة، ولا الانضواء تحت تكتُّلاتٍ حزبيَّة، ولا ينافسون على مناصبَ وزاريَّة أو مقاعد برلمانيَّة، وإنَّما همُّهم أن يهتَدوا ويهتدي مَن حولهم، وأن يصلحَ كلُّ فرد في نفسه، ليصلح معه غيره ومجتمَعه، وأن ينتَشر العلم الصَّحيح والإيمان بين النَّاس ليعمَّ الخير والأمان، إذ لا عزَّة إلاَّ بالإيمان، ولا كرامةَ إلاَّ بالتَّقوى، وأمَّا تقديس الأولياء والقبور، وتشييد الأضرحة والقباب، والتَّعصُّب للمذهب وآراء الرِّجال ولو صادمت النُّصوص الصَّحيحة الصَّريحة فهذا إسلام محرَّف ودين مزيَّف.

ومن الظُّلم بمكان أن يُنظَر إلى السَّلفية على أنَّها حزب أو حركة كسائر الحركات والأحزاب؛ لأنَّ السَّلفية ليست تيَّارًا، ولا تنظيمًا، ولا هيكلاً إنَّما هي منهجٌ لفهم الإسلام فهمًا سليمًا، وتطبيقه تطبيقًا صحيحًا، وليس لها واضعٌ ولا مؤسِّس ولا منشئٌ، إنَّما جاء بها مَن جاء بالوحي وهو رسول الله ﷺ القائل: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلاَّ هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا..» الحديث [أخرجه ابن ماجه (43)، وأحمد (17142) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وهو صحيح]

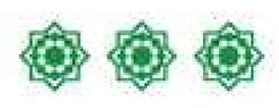
فالسَّلفيَّة هي الإسلام، وهي الوحي، وهي البَيَاض النَّقيُّ الَّذي لا يمكنُ صبغُه بلون غير البياض، فلا رسم ولا وصف للسَّلفيِّين إلاَّ متابعة الرَّسول ﷺ في العلم والعمل، وعلى منهج السَّلف الصَّالح ـ مِنَ الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم بإحسَان من أهل القُرون المشهود لهم بالخيريَّة ـ إيمانًا واعتقادًا، فقهًا وفهمًا، عبادةً وسلوكًا، تربيةً وتزكيَةً، قال ﷺ: «إنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» [أخرجه الترمذي (2641)]

وإذا اعتَزَّ النَّاس بشعاراتهم وبأحزابهم وانتماءاتهم، فإنَّ السَّلفيِّين يعتَزُّون أشدَّ الاعتزاز بانتسابهم إلى السَّلف الصَّالح، وإنَّ تآلب المُخالفين والمناوئين لدَعوتهم لا يزيدُهم إلاَّ ثباتًا وتمسُّكًا بما هُم عليه، وإنَّهم ماضون في طريقهم «لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»، فهم يرون أنَّهم يرفعون عَلَم الدِّعاية لدين محمَّد ﷺ باطنًا بمنهجهم، وظاهرًا بمظهرهم الخارجي، وما أسعَد من عاش مشهِّرًا بدين محمَّد ﷺ وسنَّته بين النَّاس.

فالسَّلفيَّة ليس لها شكلٌ تتشكَّل فيه، ولا قالب تنصَهر فيه، فلا يحتويها حزب، ولا تعتليها جبهة؛ فهي حقٌّ يعلو الجميع، وبُعدُها عن الأحزاب والحزبية كبعد المشرق عن المغرب، لقناعة حمَلَتها من عدم جدوى هذه الوسيلة التي لم تترك جمعًا إلاَّ فرَّقته ولا شملاً إلاَّ شتَّته، وما أحسنَ تصوير الشَّيخ البشير الإبراهيمي لها بقوله: «إنَّ هذه الأحزاب كالميزاب، جمع الماء كدرًا، وفرَّقه هدرًا، فلا الزُّلال جمع، ولا الأرضَ نفع» [«الآثار» (265/3)].

وليس من السَّهل على الأحداث أن تكيِّف السَّلفيَّة بغَير كيفيَّتها الَّتي طُبعت عليها وهي السُّنَّة المنافية للبدعة، والاجتماع المنافي للفرقة، والموجب للرَّحمة.

نسأل الله أن يجعلنا من أتباع منهج السَّلف، وأن يوفِّق جميع المسلمين ـ حكوماتٍ وشعوبًا ـ في كلِّ مكان للتَّمسُّك بكتابه العَزيز، وسُنَّة رسُوله الأمين وتحكيمهما والتَّحاكم إليهما، والحذَر من كلِّ ما يخالفهما، إنَّه وليُّ ذلك والقَادر عليه.





عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

7

البيــان في أخطــاء الاستشــهاد بآي القرآن

هذه حلقةٌ أخرى تنضاف إلى ما سبق ذكره وإيراده من آيات التَّنزيل المبارك التي سيقت في معرض الاستدلال أو الاستشهاد بها في غير ما نزلت فيه، أو وُضعت له حكمًا أو معنى، أو هما معًا، أو حصر معناها في قول واحد دون سائر الأقوال وإن كانت معتبرة، أو ترك الجنوح إلى التَّرجيح مع وجود ما يقتضي التَّرجيح[1].

❁❁❁

وموضوع هذه الحلقة الآية الخامسة بعد المائة (105) من سورة الأنبياء، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

❁❁❁

❁ وجه الخطأ:

حصـر المعنى المراد بـ«الأرض» في الآيـة بأرض الدُّنيا يورثها الله المؤمنين من أمَّة محمَّد ﷺ، واستشهادات جلِّ المعاصرين من كتَّاب ووعَّاظ وخطباء إذا تحدَّثوا عن التَّمكين لدين الله ومستقبل الإسلام، فإنَّهم يوردون هذا المعنى للأرض في الآية دون إشارة إلى القـول الأصح الذي عليه أكثر المفسِّرين، وهو أن المراد بالأرض في الآية أرض الجنَّة التي وعد الله بها عباده الصَّالحين.

(1) انظر لزاما موضوع الحلقة الأولى في العدد الثالث من مجلتنا (ص6).

❁ وهذا القول يرجح على غيره من الأقوال من وجوه عدَّة:

أوَّلها: أنَّه قول أكـثر المفسِّرين، صرح بذلك ابن الجوزي في تفسـيره «زاد المسير» (217/3) حـين أورد ثلاثة أقوال في المراد بالأرض في الآية، قـال رحمه الله: «أحدهـا: أنها أرض الجنة، رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس وبه قال الأكثرون»، وابن القيم في «كتـاب الروح» (324/1)، وهـذه عبارته: «وقد اختلف النـاس في الأرض المذكورة هنا، فقال سعيد بـن جبير عن ابن عباس: هي أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين».

وقـد رجح هـذا المعنى الألوسـي في «روح المعـاني» (99/9) ونسبه إلى الأكثرين، قال: «والأولى أن تفسر الأرض بأرض الجنة كما ذهب إليه الأكثرون، وهو أوفق بالمقام».

فائـدة: ذكر الشوكاني رحمه الله في «فتـح القدير» (508/3) في المـراد بالأرض في الآية أربعة أقوال، وقال بعد أن اختار أن المراد بالأرض أرض الكافرين يورثهـا الله أمة محمد ﷺ: «والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد ﷺ بوراثة أرض الكافرين وعليه أكثر المفسريـن»، وتبعه على ذلك صديق حسن خـان في «فتح البيان» (379/8) مكتفيا بإثبات عبارة الشوكاني نفسها.

وفيمـا نَسَبَاه إلى أكـثر المفسرين نظـر؛ لمخالفتهما قول من ذكرنـا مـن المفسرين الذيـن منهم من هـو أعرف بتتبـع أقوال

المفسرين كابن الجوزي وابن القيم ـ رحمهما الله ـ، ثمَّ إن المنقول في كتب التَّفاسير عن المتقدمين من المفسرين والمتأخرين لا يتفق مع ما ذهب إليه الشوكاني لعدم إيراده أسماء من نسب إليهم القول الذي اختاره، والَّذي عدَّه قول الأكثرين.

ثانيا: أنه تفسير أكثر السلف، وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع ابن أنس والثوري[2].

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد في قول الله: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ قال: «أرض الجنة يرثها عبادي الصالحون»[3].

وأخرج ـ أيضا ـ بسنده الصحيح عن عبد الرحمن بن زيد في قوله: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، قال: «الجنة»[4].

ثالثا: أنه اختيار بعض المحققين من المفسرين كالطبري والنحاس من المتقدمين، والقرطبي وابن أبي زمنين وصاحب «الجلالين» والألوسي من المتأخرين والسعدي من المعاصرين.

□ قال ابن جرير: «يعني بذلك: أن أرض الجنة يرثها عبادي العاملون بطاعته المنتهون إلى أمره ونهيه من عباده، دون العاملين بمعصيته منهم المُؤثِرين طاعةَ الشيطان على طاعته»[5].

□ وقال القرطبي: «أحسن ما قيل فيه أنه يُراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير؛ لأن الأرض في الدنيا قال قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما»[6]، وهو نفس قول النحاس في «إعراب القرآن» (59/3)، والظاهر أن القرطبي أخذه عنه وإن لم يصرح بذلك في هذا الموضع، لكنه كثيرا ما يورد أقواله ويعتمدها، وكتاب «معاني القرآن الكريم» وكتاب «إعراب القرآن» كلاهما لأبي جعفر النحاس من موارد القرطبي في «تفسيره».

رابعا: أن من وجوه الترجيح في أنَّ المراد بالأرض في الآية أرض الجنة:

□ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الزمر]، وممَّن استدل بهذه الآية من السَّلف ابن زيد كما في «تفسير الطبري» (550/18)، ومجاهد كما في «تفسير البغوي» (358/5) ومعلوم أن تفسير القرآن بالقرآن من أقوى أنواع التفسير لعلم قائله بالمراد.

□ وقوله أيضا: في أوائل سورة «المؤمنون» التي تأتي بعد هذه السورة وفيها وصف للصالحين وبأنهم يرثون أرض الجنة، كما في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة المؤمنون] فهذه يمكن أن تكون قرينة على تفسير كلمة «يرثها».

□ أن هذه الأرض، أي: «أرض الجنة» مذكورة عقيب الإعادة[7]، وبعد الإعادة الأرض التي هذا وصفها لا تكون إلا الجنة[8]، والمعلوم من قواعد الترجيح عند المفسرين أن «إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلا بدليل يجب التسليم له»[9]، وقد أقر هذه القاعدة وسار عليها جم من العلماء منهم العز بن عبد السلام حيث قال: «إذا احتمل الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى»[10].

وممن عمل من المفسرين بالقاعدة وإن لم يشر إليها صاحب «التفسير الحديث»[11] إذ جاء في تعليقه على جملة: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾: «ولقد تعددت أقوال أهل التَّأويل من الصَّدر الإسلامي الأوَّل الَّتي يرويها المفسِّرون لجملة ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ منها أنها الجنة الأخروية ومنها أنها الدنيا أو أنها أرض الكفار التي يفتحها المسلمون، ومنهم من رأى فيها بشرى فوز النبي والمؤمنين على قريش في النهاية ويلحظ أن الكلام هو في صدد مصائر الناس في الآخرة وتوكيد وعد الله بتحقيق ذلك مما يجعلنا نرجح الاحتمال الأول، ولاسيما إن جملة ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ لا يمكن أن تنصرف إلاَّ إلى عباد الله المؤمنين الموحدين السالكين طريق الحق في حين أن كثيرا ما يتمكن في الأرض أناس غير

(2) انظر «تفسير الطبري» (549/18)، و«تفسير ابن كثير» (385/5).

(3) «الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور» (399/3) حكمت ياسين.

(4) «الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور» (399/3) حكمت ياسين.

(5) «جامع البيان في تأويل القرآن» (ت: أحمد محمد شاكر) (549/18).

(6) «الجامع لأحكام القرآن» (349/11).

(7) المقصود به يوم البعث ويدل عليه سياق الآيات صريحا بدءًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة الأنبياء].

(8) ذكره الرازي في «مفاتيح الغيب» (192/22) والألوسي في «روح المعاني» (98/9).

(9) «قواعد الترجيح عند المفسرين» لـ د. حسين الحربي (111/1).

(10) «الإشارة إلى الإيجاز» (ص220) نقلا من قواعد «الترجيح عند المفسرين» (115/1).

(11) هو د. محمد عزة دروزة.

متصفين بذلك»[12].

ولعل الألوسي في «تفسيره» أعمل القاعدة وإن لم يُشر إليها كما في قوله: «والأولى أن تفسر الأرض بأرض الجنة كما ذهب إليه الأكثرون وهو أوفق بالمقام»[13].

وأما كلام الشيخ الطاهر بن عاشور ففيه إشارة إلى ارتباط الآية بالتي قبلها وهو ما يعني أن السياق واحد كما في قوله: «إن كان المراد بالأرض أرض الجنة كما في قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر: 74] فمناسبة ذكر هذه الآية عقب التي تقدمتها ظاهرة»[14].

خامسا: أنها الأرض التي يختص بها الصالحون؛ لأنها لهم خلقت، وغيرهم إذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع، فأما أرض الدنيا فلأنها للصالح وغير الصالح[15].

والملاحظ في هذا الوجه من وجوه الترجيح أنه يسلم لقائله في أن المراد بالأرض أرض الجنة لاختصاص الصالحين بها دون غيرهم؛ لأنها لهم خلقت، وقد اعتُرض على هذا الفهم بأجوبة ذكرها الشيخ ابن باديس في «تفسيره» (398/1) منها:

«أن هذا التأويل (وهو أن المراد بالأرض الموروثة أرض الجنة) إنما يحتاج إليه أن لو كانت الآية هكذا: إن الأرض لا يرثها إلاَّ عبادي الصالحون، بطريق الحصر فيهم، أما لما كانت الآية لا حصر فيها، فلا حاجة إلى هذا التأويل، بل في لفظ الإرث وربطه بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت إليهم، وأنها تزول مع زوال وصف الصلاح، وقد جاء التنبيه على أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾، فيرثها الصالحون نعمة، ويرثها غيرهم فتنة ونقمة، كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير».

❁❁❁

(12) (295/5).
(13) تقدَّم.
(14) «التحرير والتنوير» (161/17).
(15) ذكره الرازي في «تفسيره» (192/22)، وبه قال النحاس وتبعه القرطبي في ذلك وقد تقدم.

❁ تذكير وتنبيه:

كل ما تم عرضه من وجوه الترجيح في تعيين المراد بالأرض في الآية، وأنها أرض الجنة هو لإثبات صحة هذا المعنى وتقديمه على غيره عند الاستدلال بالآية وإن كان غيره صحيحًا. وهو تفسيره الأرض بأنَّها أرض الدُّنيا. لاسيما وقد قال به بعض أعلام المفسرين كابن القيم[16] وابن كثير[17] والشنقيطي، وهذان الأخيران أثبتا القولين معًا، ويجمل إيراد كلام صاحب «الأضواء» لنفاسته، يقول ﷺ: «إنَّ الآية قد يكون فيها قولان للعلماء، وكلاهما حق ويشهد له قرآن فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق داخل في الآية، ومن ذلك هذه الآية الكريمة؛ لأن المراد بالأرض في قوله هنا: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ فيه للعلماء وجهان...»[18] وذكر القولين أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين، وأرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلَّى الله على نبيِّه محمَّد وآله وسلَّم.

(16) قال ابن القيم في «كتاب الروح» (384/1): «وهذا القول هو الصحيح».
(17) «تفسير ابن كثير» (384/5).
(18) «أضواء البيان» (867/4).



الحديث الوارد في بول الأعرابي في المسجد

رواية ودراية

د. رضا بوشامة
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابيٌّ، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ! قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ».

فتركوه حتَّى بال، ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له:

«إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ وَلا القَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلاَةِ، وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ» أو كما قال رسول الله ﷺ.

قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنَّه عليه». لفظ مسلم.

وفي رواية أبي هريرة قال:

«دخل أعرابيٌّ المسجد والنَّبيُّ ﷺ جالس، فصلَّى فلمَّا فرغ قال: اللَّهمَّ ارحمني ومحمَّدًا، ولا ترحم معنا أحدًا، فالتفت إليه النَّبيُّ ﷺ فقال:

«لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا»، فلم يلبث أن بال في المسجد فأسرع إليه النَّاس، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أَهْرِيقُوا عَلَيْهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أَوْ دَلْوًا مِنْ مَاءٍ» ثمَّ قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ».

الدراسة الإسنادية

تخريج الحديث

أوَّلاً. حديث أنس بن مالك:

روي عنه من طرق:

1. طريق ثابت، عن أنس.

أخرجه البخاريُّ في «الصَّحيح» (6025) عن عبد الله ابن عبد الوهَّاب.

ومسلم في «الصَّحيح» (284) والنَّسائي في «السُّنن» (53) عن قتيبة بن سعيد.

وابن ماجه في «السُّنن» (528)، وابن خزيمة في «الصَّحيح» (296) عن أحمد بن عبدة.

وأحمد في المسند (13368) عن يونس بن محمَّد.

وأبو عوانة في «المسند» (214/1) عن محمَّد بن سفيان، عن سليمان بن بلال.

وفي (570) عن الزَّعفراني، عن أبي عباد.

- خمستهم عن حمَّاد بن زيد، عن ثابت به.

2. طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس.

أخرجه البخاريُّ (221) عن خالد بن مخلد، عن سليمان ابن بلال.

وأخرجه أيضًا (221) عن عبدان، والنَّسائي (55) عن سويد، كلاهما عن عبد الله بن المبارك.

ومسلم (284) عن أبي موسى محمَّد بن المثنَّى، عن يحيى القطَّان.

وعن قتيبة ويحيى بن يحيى، كلاهما عن عبد العزيز ابن محمَّد.

والتِّرمذي في «الجامع» (148) عن سعيد بن عبد الرَّحمن المخزومي، عن سفيان.

والنَّسائي (54) عن قتيبة، عن عبيدة بن حميد.

وأحمد في «المسند» (12082) عن سفيان بن عيينة، وفي (181/19) عن يحيى بن سعيد القطَّان، وفي (12709) عن عبد الله بن نمير.

والدَّارمي في «السُّنن» (767) عن جعفر بن عون.

وأبو عوانة في «المسند» (213/1، 214) من طريق يزيد ابن هارون وسفيان.

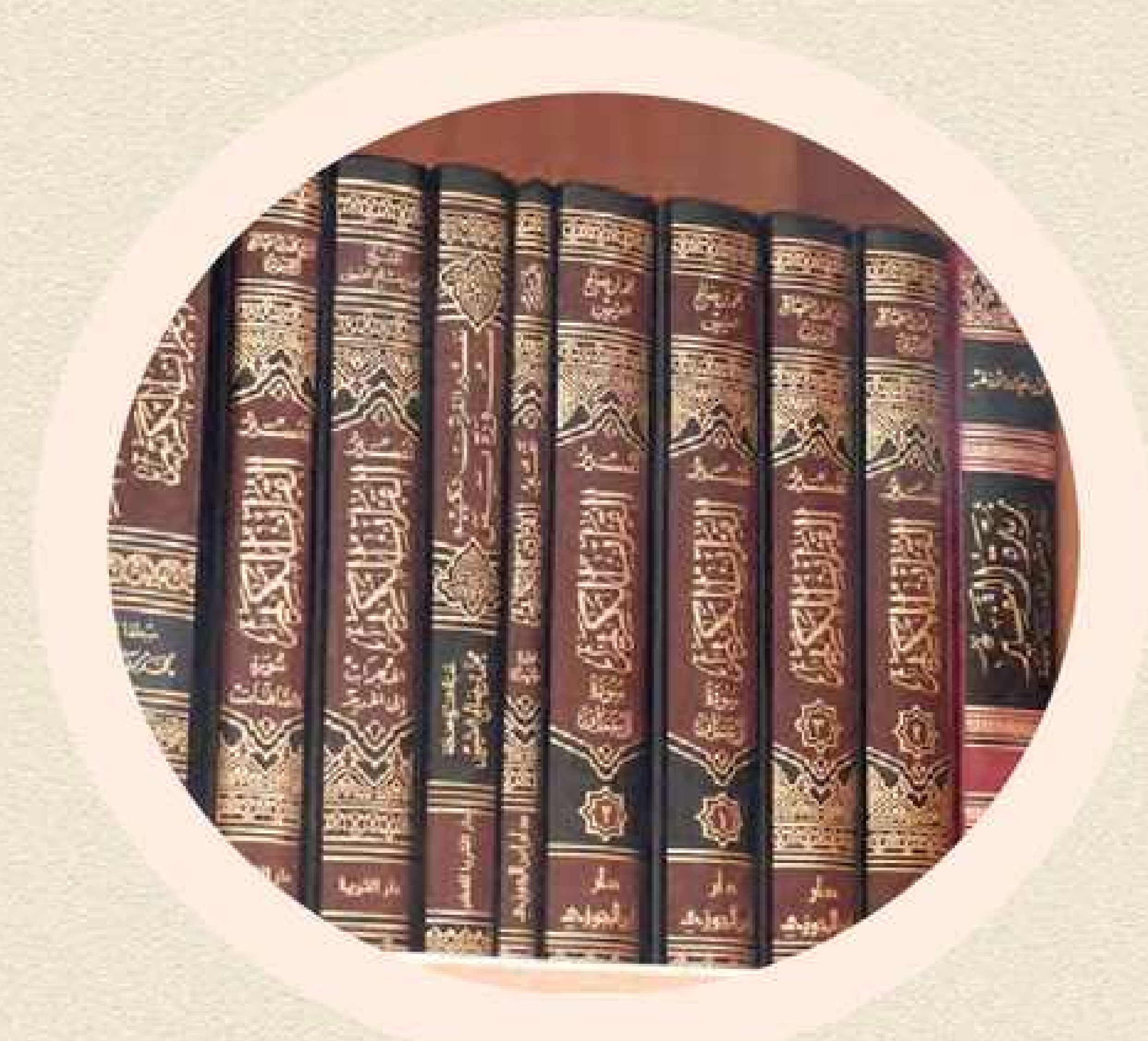
تسعتهم عن يحيى بن سعيد الأنصاري به.

وخالف هؤلاء الرُّواة: مالك بن أنس، فرواه في «الموطَّأ» (166) عن يحيى بن سعيد أنَّه قال: «دخل أعرابيٌّ المسجد...»، ولم يذكر أنسًا، وذِكرُه صحيح لاتِّفاق هؤلاء الرُّواة الثِّقات على إسناده ووصله.

3. طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس.

أخرجه البخاري في «الصَّحيح» (219) عن موسى بن إسماعيل، عن همَّام.

ومسلم في «الصَّحيح» (285) عن زهير بن حرب، عن عمر ابن يونس، عن طريق عكرمة بن عمَّار كلاهما عن إسحاق به.



ثانيًا. حديث أبي هريرة:

روي عنه من ثلاث طرق:

1. طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود.

أخرجه البخاريُّ في «الصَّحيح» (220، 6128) من طريق شعيب بن أبي حمزة.

والنَّسائيُّ في «السُّنن» (56) من طريق محمد بن الوليد.

وأخرجه أحمد في «المسند» (209/13 . 210) من طريق معمر ويونس.

وابن حبَّان في «الصَّحيح» (1399، 1400) من طريق محمَّد ابن الوليد الزُّبيدي، ويونس.

وابن خزيمة في «الصَّحيح» (297) من طريق يونس.

. خمستهم عن الزُّهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، عن أبي هريرة.

2. طريق سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرة:

أخرجه أبو داود في «السُّنن» (380)، والتِّرمذي في «الجامع» (147)، وأحمد في «المسند» (7255)، وابن الجارود في «المنتقى» (141)، وغيرهم من طرق عن سفيان بن عيينة عن الزُّهري عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة.

3. طريق أبي سلمة بن عبد الرَّحمن، عن أبي هريرة.

أخرجه البخاريُّ في «الصَّحيح» (6010)، وأبو داود في «السُّنن» (882)، وأحمد في «المسند» (211/13)، وابن خزيمة في «الصَّحيح» (864)، وابن حبَّان في «الصَّحيح» (987) من طرق عن الزُّهري.

وأخرجه ابن ماجه في «السُّنن» (529)، وأحمد في «المسند» (10533)، وابن حبَّان (985) وغيرهم من طرق عن محمَّد ابن عمرو بن علقمة، كلاهما عن أبي سلمة بن عبد الرَّحمن، عن أبي هريرة.

ثالثا. حديث واثلة بن الأسقع:

أخرجه ابن ماجه في «السُّنن» (530) والطَّبراني في «المعجم الكبير» (77/22) من طريق عبيد الله بن أبي حميد الهذلي، عن أبي المليح الهذلي، عن واثلة.

وسنده ضعيف جدًّا، فيه عبيد الله بن أبي حميد أبو الخطَّاب الهذلي أجمع الأئمَّة على تضعيفه، ولخَّص عبارتهم الحافظ ابن حجر في «التَّقريب» فقال: «متروك الحديث».

□□□

الأحاديث التي ورد فيها ذكر الحفر:

لم تذكر الطُّرق الصَّحيحة لهذا الحديث زيادة حفر المكان الَّذي بال فيه أو نقل ترابه إلى خارج المسجد، وقد روي الأمر من طرق، لكنَّها متكلَّم فيها:

□ الطَّريق الأوَّل. من حديث عبد الله بن مسعود:

أخرجه الدَّارقطني في «السُّنن» (477)، وأبو يعلى في «المسند» (3626) من طريق أبي هشام الرِّفاعي محمَّد ابن يزيد، عن أبي بكر بن عيَّاش، عن سِمعان بن مالك، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، وفيه: «جاء أعرابي فبال في المسجد فأمر رسول الله ﷺ بمكانه فاحتفر...».

وأخرجه الطَّحاوي في «شرح المعاني» (14/1) من طريق يحيى بن عبد الحميد الحمَّاني، عن أبي بكر بن عيَّاش به.

وسنده ضعيف جدًّا، سِمعان ضعَّفه أبو زرعة وقال: «ليس بقوي»، وفيه أيضًا: أبو هشام الرِّفاعي محمَّد بن يزيد ليس بالقويِّ أيضًا، وله أحاديث منكرة عن أبي بكر بن عيَّاش.

وأمَّا السَّند الثَّاني من طريق يحيى بن عبد الحميد الحمَّاني فهو ضعيف أيضًا؛ لأنَّ الحمَّاني معروف بسرقة الحديث، فيكون سرقه من أبي هشام الرِّفاعي.

ونقل ابن الملقِّن عن أبي زرعة أنَّه قال: «حديث منكر»، وعن ابن أبي حاتم أنَّه قال: «ليس لهذا الحديث أصل».

وقال الدَّارقطني في «العلل» (81/5) بعد أن ذكر زيادة الحفر في السَّند: «ليست بمحفوظ عن أبي بكر بن عيَّاش».

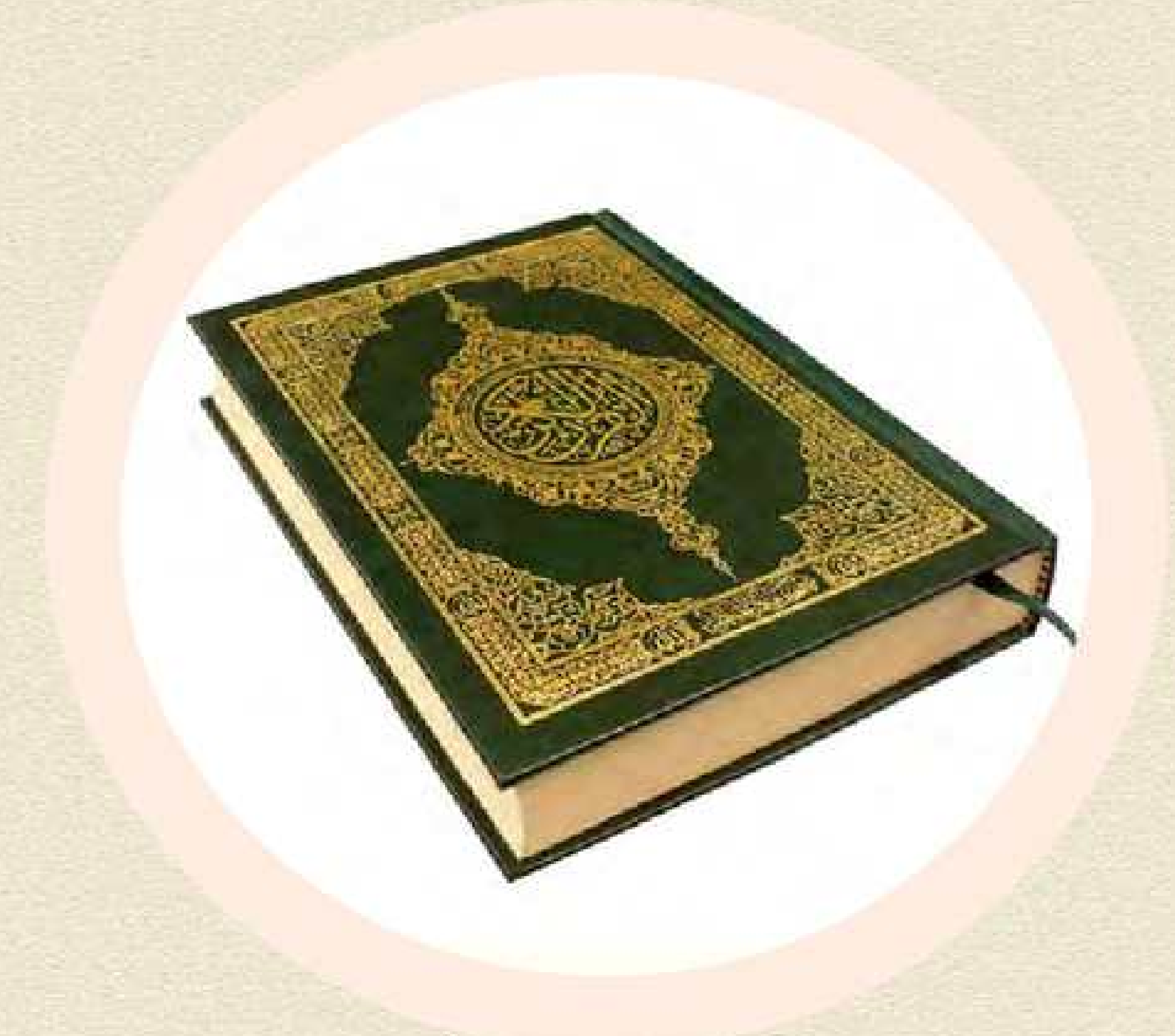
لأنَّه روي الحديث من غير طريق أبي هشام الرِّفاعي ولم يذكر الحفر.

□ ثانيًا. من حديث أنس بن مالك:

ذكر ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (334/1) أنَّ أبا محمَّد ابن صاعد روى عن عبد الجبَّار بن العلاء، عن ابن عيينة، عن يحيى بن سعيد، عن أنس بن مالك: «أنَّ أعرابيًا بال في المسجد، فقال النَّبيُّ ﷺ: «احْفِرُوا مَكَانَهُ ثُمَّ صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ»».

ونقل عن الدَّارقطني أنَّه قال: «وهم عبد الجبَّار على ابن عيينة؛ لأنَّ أصحاب ابن عيينة الحفاظ رووه عن يحيى بن سعيد، فلم يذكر أحد منهم الحفر، وإنَّما روى ابن عيينة عن عمرو ابن دينار، عن طاوس: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «احْفِرُوا مَكَانَهُ» مرسلاً، فاختلط على عبد الجبَّار المتنان».

قلت: تقدَّم أنَّ الحديث رواه عن سفيان بن عيينة: أحمد في



«المسند»، والشَّافعي عند أبي عوانة، وسعيد بن عبد الرَّحمن المخزومي عند «التِّرمذي»، ولم يذكروا الحفر عن ابن عيينة، عن يحيى بن سعيد.

وانفرد بذكره عبد الجبَّار بن العلاء، قال عنه ابن حجر في «التَّقريب»: «لا بأس به»، فمثله إذا خالف أمثال أحمد والشَّافعي وغيرهما تكون روايته شاذَّةً.

وقد بيَّن الدَّارقطني سبب الشُّذوذ، وذلك أنَّ ابن عيينة روى هذا الحديث من طريق آخر عن عمرو بن دينار، عن طاووس قال: «بال أعرابي ...» فذكره وذكر الحفر.

أخرجه عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (1659) عن ابن عيينة.

ورواه أيضًا الطَّحاوي في «شرح معاني الآثار» (13/1) من طريق ابن عيينة.

فاختلط على عبد الجبَّار هذا الطَّريق بالطَّريق الآخر الموصول فحمله عليه، والصَّواب أنَّ ابن عيينة روى الحفر عن عمرو بن دينار، عن طاوس مرسلاً.

□ ثالثا. من حديث عبد الله بن معقل بن مقرن مرسلاً:

أخرجه أبو داود في «السُّنن» (381)، ومن طريقه الدَّارقطني في «السُّنن» (479) عن موسى بن إسماعيل، عن جرير بن حازم، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن معقل بن مقرن قال: قام أعرابيٌّ إلى زاوية...، وفيه قول النَّبيِّ ﷺ: «خُذُوا مَا بَالَ عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ فَأَلْقُوهُ...».

وسنده مرسل؛ قال أبو داود: «وهو مرسل ابن معقل لم يدرك النَّبيِّ ﷺ».

□ رابعا . من حديث طاووس مرسلاً:

وقد مرَّ أنَّ ابن عيينة رواه عن عمرو بن دينار، عن طاووس، وأخرجه أيضًا عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (1662) عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه قال: «بال أعرابيٌّ في المسجد...»، وفيه: «احْفِرُوا مَكَانَهُ».

وبالنَّظر في هذه الطُّرق نجد أنَّ الأحاديث الصَّحيحة الموصولة لم يذكر فيها الحفر، ولم يأت إلاَّ من جهات ضعيفة أو مرسلة.



□ فائدة إسنادية:

جاء في الحديث قول أنس أو غيره من الرُّواة: أو كما قال رسول الله ﷺ.

وفي هذا دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى دون اللَّفظ، فلم يقطع بلفظه لكنَّه عوَّل على المعنى فيه، فلذا نرى أنَّ بعض الرِّوايات جاءت بلفظ، وبعضها بلفظ آخر، وفي بعضها زيادة على الرِّوايات الأخرى، وكلُّها مؤدِّية لمعنى واحد في الحديث.

■ ■ ■

شرح متن الحديث وفوائده

■ المسألة الأولى . في غريب ألفاظه:

□ الأعرابي: . بالألف .: إذا كان بدويًّا صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلإ وتتبُّع لمساقط الغيث، سواء كان من العرب أو من مواليهم ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب.

ويقال: إنَّ الأعرابي إذا قيل له: يا عربي فرح بذلك وهشَّ له، والعربيُّ إذا قيل له: يا أعرابي غضب له.

فمن نزل البادية أو جاور البادين وظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب ومن نزل بلاد الرِّيف واستوطن المدن والقرى العربيَّة وغيرها ممَّن ينتمي إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء.

وهذا الأعرابيُّ قيل: إنَّه ذو الخويصرة اليماني، وقد جاء ذلك من طريق ضعيفة مرسلة عند أبي موسى المديني في كتاب «الصَّحابة»، وقد صار من رؤوس الخوارج.

وقيل: هو عيينة بن حصن، وقيل هو الأقرع بن حابس.

وهذا التَّعيين في علوم الحديث يسمى تعيين المبهم وقد صنَّف فيه الأئمَّة كتبًا باسم «الغوامض والمبهمات»، صنَّف فيه عبد الغنيِّ بن سعيد الأزدي، وأبو القاسم خلف بن بشكوال الأندلسي، والخطيب البغدادي واسم كتابه: «الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة»، وكذا النَّووي وولي الدِّين العراقي وغيرهم، وكلُّ هذه الكتب مطبوعة، وفوائد تعيين المبهم كثيرة، منها:

. تحقيق الشَّيء على ما هو عليه، فإنَّ النَّفس متشوِّفة ومتشوِّقة إليه.

. أن يكون في الحديث منقبة وفضيلة لذلك المبهم، فتستفاد بمعرفته وتعيينه فضيلته فينزَّل منزلته.

. أن يشتمل على فعل لا يصلح أن ينسب إلى مقام الصحابة، فيحصل بتعيينه السَّلامة من جوَلان الظَّنِّ في هؤلاء الأخيار، كما جاء في هذا الحديث.

. أن يكون ذلك المبهم سائلاً عن حكم عارضه حديث آخر فتستفاد بمعرفته هل هو ناسخ أو منسوخ إن عُرف إسلام ذاك الصَّحابي، إلى غير ذلك من الفوائد الَّتي لا تخفى.

□ «طائفة المسجد»: جاء في رواية عند البخاري: «جاء أعرابيٌّ فبال في طائفة المسجد»، وطائفة المسجد يعني جزءًا منه، وطائفة النَّاس جزء منهم، ووقع في طرق أخرى: «ناحية المسجد»، والمعنى واحد.

□ «تحجَّرت»: يقال: تَحَجَّرَ ما وَسَّعه الله أي: حرَّمه وضَيَّقَهُ، أي: ضيَّقت ما وسَّعه الله وخَصَصْت به نفسك دون غيرك.

وقيل: هو على بابه في معنى الحَجْر وهو المنع، ومنه حَجْرُ القاضي على الصَّغير والسَّفيه إذا منعهما من التَّصرُّف في مالهما، فيكون المعنى: لقد اعتقدتَ المنع فيما لا منع فيه.

ويظهر من سياق الحديث أنَّ الأعرابي لمَّا دخل المسجد صلَّى ركعتين، ثمَّ دعا بدعاء فيه تضييق لرحمة الله، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «لَقَدْ تَحَجَّرتَ وَاسِعًا».

ثمَّ قام إلى زاوية في المسجد فبال، ويهم الكثير بذكر أن سبب هذا الدعاء من الأعرابي هو ما وقع له من إنكار الناس عليه، ونهي النبي ﷺ له ورحمته به، وألفاظ الحديث خلاف هذا الفهم.

□ قول أنس: قال أصحاب رسول الله ﷺ: «مهْ مهْ»:

«مهْ»: اسم فعل مبني على السُّكون معناه اكفف، وهي كلمة زجر قيل أصلها: ما هذا! ثمَّ حذف منه تخفيفًا، وتقال مكرَّرة ومفردة، وقيل: هي لتعظيم الأمر، مثل قول النَّبيِّ ﷺ: «بخ بخ ذَاكَ مَال رَابح».

ومثل: صه بمعنى اسكت، كقول ابن مالك:

والأمر إن لم يك للنُّون محل
فيه هو اسم نحو صهْ وحيَّهل

□ قوله: «أنَّ أعرابيًّا بال في المسجد فثار النَّاس إليه ليمنعوه».

«ثار النَّاس»: أي قام النَّاس، ومنه ثوران البعير، وجاء في رواية: «فصاح النَّاس به حتَّى علا الصَّوت»، وفي رواية: «فقام إليه النَّاس ليقعوا به»، وفي رواية: «فتناوله النَّاس».

□ قوله ﷺ: «لاَ تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ»:

تُزرموه: بضمِّ التَّاء الفوقيَّة وإسكان الزَّاي، أي: لا تقطعوه، والإزرام: القطع.

يقال: زَرِمَ البيعُ إذا انقطع وزَرَمَ الشَّيءَ يَزْرِمُهُ زَرْمًا وأَزْرَمهُ وزَرَّمَه قطعه وزرِمَ دمعُهُ وبولُهُ، وازْرَأَمَّ انقطع وكلُّ ما انقطع فقد زَرِم، وجاء في حديث عند الطَّبراني في «الأوسط» (204/6) عن أمِّ سلمة: «أنَّ الحسن أو الحسين بال على بطن النَّبيِّ ﷺ فذهبوا ليأخذوه فقال النَّبيُّ ﷺ: «لاَ تُزْرِمُوا ابْنِي أَوْ لاَ تَسْتَعْجِلُوهُ» فتركوه حتَّى قضى بوله فدعا بماء فصبَّه عليه.

□ قوله ﷺ: «إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذَر».

القذَر: ضدُّ النَّظافة؛ وشيء قَذِرٌ بَيِّنُ القَذارة.

□ قوله: «فجاء بدلو من ماء»:

الدَّلْوُ معروفة واحدة الدِّلاء الَّتي يُسْتَقَى بها تذكَّر وتؤنَّث، يقال: دَلَوْتها أَدْلُوها دَلْوًا إذا أَخرجتها وجَذَبْتَها من البئر مَلأى.

وجاء في رواية: «سَجلاً من ماء أو ذنوبًا من ماء»:

السَّجل بفتح المهملة وسكون الجيم، هو الدَّلو ملأى، ولا يقال لها ذلك وهي فارغة، وقيل السَّجل: الدَّلو الواسعة، وقيل: الدَّلو الضَّخمة.

□ «أو ذنوباً من ماء»:

«أو» قيل هي للشَّك، أي أنَّ الرَّاوي شكَّ في أيِّ اللَّفظين سمع، وقيل: هي للتَّخيير، ورجَّح الحافظ ابن حجر الأوَّل وأنَّه شكٌّ من الرَّاوي؛ لأنَّ روايات أنس بن مالك لم يختلف أنَّها ذَنوب.

والذَّنوب لا يطلق إلاَّ على الدَّلو ملأى، فلماذا أكَّد بقوله ذنوب من ماء.

أجيب على ذلك لرفع الاشتباه، وذلك أنَّ كلمة ذنوب تشترك مع غيرها، فيقال للفرس الطَّويل الذَّنب الذَّنوب، ويقال للحظِّ الذَّنوب، ويوم ذنوب أي: طويل شرُّه، إلى غير ذلك من الألفاظ المشتركة.

□ قوله: «فشنَّه عليه»:

شنَّ: صَبَّها وبَثَّها وفَرَّقها من كلِّ وجه، ومنه شنُّ الغارَات، وأصل الشَّنِّ والشَّنَّةِ الخَلَقُ من كلِّ آنية صُنِعَتْ من جلد وجمعها شِنَانٌ.

وقيل فيه: سنَّه عليه، لكنَّ الأكثر ورودا شنَّه بالشِّين المعجمة، وفرَّق بينهما بعض العلماء فقال: بالسِّين المهملة الصَّب بسهولة، وبالمعجمة التَّفريق في صبه.

ـ وجاء في رواية: «فَصَبَّهُ عَلَيْه»، وفي رواية أخرى: «هَرِيقُوا عَلَى بَوْلِه»، وفي أخرى: «فَأُهْرِيقَ عَلَيْه».

الهاء في هَرَاقَ بَدَلٌ من هَمْزة أَرَاقَ يقال: أَرَاقَ المَاء يُرِيقُهُ وَهَرَاقَهُ هرَاقَةً، ويُقالُ فيه: أَهْرَقْتُ المَاءَ أُهْرِقُه إهْرَاقاً فيُجْمَع بَيْن البَدَل والمُبْدَل.

■ المسألة الثَّانية ـ فقه الحديث:

هذا الحديث استدلَّ به على عدَّة مسائل فقهيَّة، منها:

□ النَّجاسة الحكميَّة هي الواردة على شيء طاهر، والنجاسة العينيَّة لا يمكن طهارتها إلاَّ إذا استحالت على رأي بعض العلماء.

□ إزالة النَّجاسة هل يشترط لها الماء:

ـ القول الأوَّل: يشترط، واستدلُّوا بعدَّة أدلَّة، منها قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان]، وحديث بول الأعرابي في المسجد.

- القول الثَّاني: لا يشترط، ولو زالت عين النَّجاسة بأيِّ مزيل كان فإنَّها تطهر، كالشَّمس والرِّيح.

والصَّواب أنَّه لا يشترط، فقد ورد في السُّنَّة إزالة النَّجاسة بغير الماء، كالاستجمار بالأحجار.

ثمَّ إنَّ إزالة النَّجاسة ليست من باب المأمور، بل من باب اجتناب المحظور، فإذا حصل بأيِّ سبب كان ثَبَتَ الحُكم، ولهذا لا يُشترط لإزالة النَّجاسة نيَّة، فلو نزل المطر على الأرض المتنجِّسة وزالت النَّجاسة طَهُرت، ولو توضَّأ إنسان وقد أصابت ذراعَه نجاسةٌ ثمَّ بعد أن فرغ من الوُضُوء ذكرها فوجدها قد زالت بماء الوُضُوء فإنَّ يده تطهر.

والجواب عمَّا استدلَّ به من قال بتعيُّن الماء:

أنَّه لا ينكر أنَّ الماء مطهِّر، وأنَّه أيسر شيء تطهَّر به الأشياء، لكن إثبات كونه مطهِّرًا، لا يمنع أن يكون غيره مطهِّرًا؛ لأنَّ لدينا قاعدة وهي: انتفاء الدَّليل المعيَّن لا يَستلزِم انتفاء المدلول؛ لأنَّه قد يَثْبُتُ بدليل آخر.

وأمَّا بالنِّسبة لحديث أنس، وأَمْرُ النَّبيِّ ﷺ بأن يُصَبَّ عليه الماء فإنَّ ذلك لأجل المبادرة بتطهيره؛ لأنَّ الشَّمس لا تأتي عليه مباشرة حتَّى تُطهِّره بل يحتاج ذلك إلى أيَّام، والماء يُطهِّره في الحال، والمسجد يحتاج إلى المبادرة بتطهيره؛ لأنَّه مُصلَّى النَّاس، فلا يدلُّ تعيينُه على تعيُّنِه؛ لأنَّ تعيينَه لكونه أسرعَ في الإزالة، وأيسرَ على المكلَّف.

فإذا زالت النَّجاسة بأيِّ مزيل كان طَهُر محلُّها؛ لأنَّ النَّجاسة عينٌ خبيثة، فإذا زالت زال حكمها، فليست وصفًا كالحدث لا يُزال إلاَّ بما جاء به الشَّرع.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يُبادر بإزالة النَّجاسة عن مسجده، وثوبه، وبَدَنه.

☐ أنَّ النَّجاسة لا يشترط فيها عدد إلاَّ ما جاء به النَّصُّ، كغسل لعاب الكلب سبع مرَّات إحداها بالتُّراب، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر بذنوب من ماء، ولم يكرِّر الغسل، فلا يعتبر العدد إذا قام في غالب الظَّنِّ أنَّ المكان زالت منه النَّجاسة وطهر.

☐ أنَّ بول الآدمي نجس بإجماع.

☐ طهارة الأرض النَّجسة بصبِّ الماء عليها، ولا يُشترط حفرها، وهو قول جمهور العلماء، وذُكر عن الحنفيَّة أنَّه يُشترط حفرها. لكنَّ الصَّواب أنَّ الحنفيَّة يفرِّقون بين الأرض الرِّخوة والأرض الصَّلبة، قال الكاساني في «بدائع الصَّنائع» (89/1): «ولو أنَّ الأرض أصابتها نجاسةٌ رطبة، فإن كانت الأرض رِخْوَة يُصَبُّ عليها الماء، حتَّى يتسَفَّلَ فيها فإذا لم يبق على وجهها شيءٌ من النَّجاسة، وتسفَّلَت المياه يحكم بطهارتها، ولا يُعتبرُ فيها العددُ، وإنَّما هو على اجتهاده، وما في غالب ظنِّه أنَّها طهُرت، ويقوم التَّسفُّلُ في الأرض مقام العصر فيما يحتمل العصرَ، وعلى قياس ظاهر الرِّواية يُصَبُّ الماءُ عليها ثلاث مرَّات، ويتسفَّلُ في كلِّ مرَّة، وإن كانت الأرض صلبة فإن كانت صَعُودًا يُحفرُ في أسفلها حفيرةٌ، ويُصبُّ الماء عليها ثلاث مرَّات، ويزال عنها إلى الحفيرة، ثمَّ تكبرُ الحفيرةُ، وإن كانت مستويةً بحيث لا يزول الماء عنها لا تغسل، لعدم الفائدة في الغسل.

وقال الشَّافعيُّ: إذَا كُوثِرَت بالماء طهُرت؛ وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ الماء النَّجس باقٍ حقيقةً، ولكن ينبغي أن تقلب فيُجعَلُ أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها ليصير التُّراب الطَّاهر وجه الأرض، هكذا روي أنَّ أعرابيًّا بال في المسجد، فأمر رسول الله ﷺ أن يُحفَرَ موضعُ بوله، فدلَّ أنَّ الطَّريق ما قلنا، والله أعلم» اهـ.

ولا شكَّ أنَّ الحديث الوارد في ذلك ضعيف لا تقوم بمثله الحجَّة، وما جاء في الطُّرق الصَّحيحة المتقدِّمة ظاهر أنَّه لا يشترط الحفر ولا نقل التُّراب.

☐ في الحديث دليل على الفرق بين ورود الماء على النَّجاسة، وورود النَّجاسة على الماء، فإنَّ ما صُبَّ عليه الماء من البول طهَّره، وما وقع من البول في الماء أفسده، إلاَّ إذا كان الماء كثيرًا بحيث لا تؤثِّر فيه النَّجاسة فيبقى على طهارته.

☐ أنَّ إزالة النَّجاسة لا تفتقد إلى الدَّلك، إلاَّ أن يكون لها عين لا ترتفع إلاَّ بذلك.

☐ لا يجوز إدخال الثَّوب النَّجس إلى المساجد؛ لأنَّها لا تصلح لشيء من هذا القذر.

إلى غير ذلك من مسائل هذا الحديث الفقهيَّة.

■ المسألة الثَّالثة . في فوائده الدَّعويَّة والمنهجيَّة:

☐ فيه المبادرة إلى تغيير المنكر إذا اطَّلع عليه المكلَّف؛ لمبادرة الصَّحابة إلى الأعرابيِّ حين بال في المسجد، وهو فرض من فروض الكفاية.

☐ فيه دليل على الرِّفق في تغيير المنكر، ولذا أورد البخاريُّ هذا الحديث في كتاب الأدب باب: الرِّفق في الأمر كلِّه، وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ» [مسلم (4952)].

□ لم ينكر النَّبيُّ ﷺ على الصَّحابة نهيهم عن المنكر، لكن أمرهم بالكفِّ عنه للمصلحة الرَّاجحة، وهو دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما، وذلك أنَّ النَّجاسة وقعت، وإيقاف البول فيه مفسدة على البائل، لذلك قال: «لاَ تُزْرِمُوهُ» أي: لا تقطعوا بوله، فإنَّه لو قطع عليه بوله لتضرَّر، وأصل التَّنجيس قد حصل فلا يُزاد عليه.

□ قول النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ». أسند البعث إليهم لأنَّهم كانوا في مقام التَّبليغ عنه في حضوره وغيبته، أو هم مبعوثون من قبله بذلك أي: مأمورون، وكان شأنه في كلِّ من بعثه للدَّعوة إلى الله أن يقول له ﷺ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا».

والشَّريعة الإسلاميَّة كلُّها يسر ولا عسر فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة النساء].

وقال ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا» [البخاري (39)].

فالتَّيسير كلُّه في اتِّباع كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، ولا يمكن أن يكون الاستغناء عنهما وترك الائتمار بأوامرهما واجتناب نواهيهما من باب التَّيسير على النَّاس.

ولذلك قال الله تعالى في كتابه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النحل]، والحكمة هنا هي الكتاب والسُّنَّة كما قال علماء التَّفسير، قال ابن جرير رحمه الله في «تفسيره»: «بوحي الله الَّذي يوحيه إليك، وكتابه الَّذي ينزله عليك».

والأصل في الدَّعوة أن تكون بالطُّرق الحكيمة، فلكلِّ مقام مقال، ولكلِّ صنف من النَّاس طريقة يُعامل بها على حسب المصلحة في دعوته وإرشاده وهدايته.

فهذا الأعرابيُّ لمَّا قال له النَّبيُّ ﷺ: إنَّ المساجد لا تصلح لهذا القذر باللِّين والرَّأفة والرَّحمة سمع ما قال وأعجبه ما قال، فلذلك جاء في الحديث أنَّه قال بعد أن فقه: «فَقَامَ إِلَيَّ بِأَبِي وَأُمِّي فلم يؤنِّب ولم يسُبَّ»، وزاد أن تركه يكمل بوله ولم يقطعه عليه.

وجاء مثله أيضًا في حديث آخر وهو حديث معاوية بن الحكم السُّلمي الَّذي شمَّت العاطس وهو في الصَّلاة فرماه النَّاس بأبصارهم، قال: «فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمِّي ما رأيت معلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» [مسلم (537)].

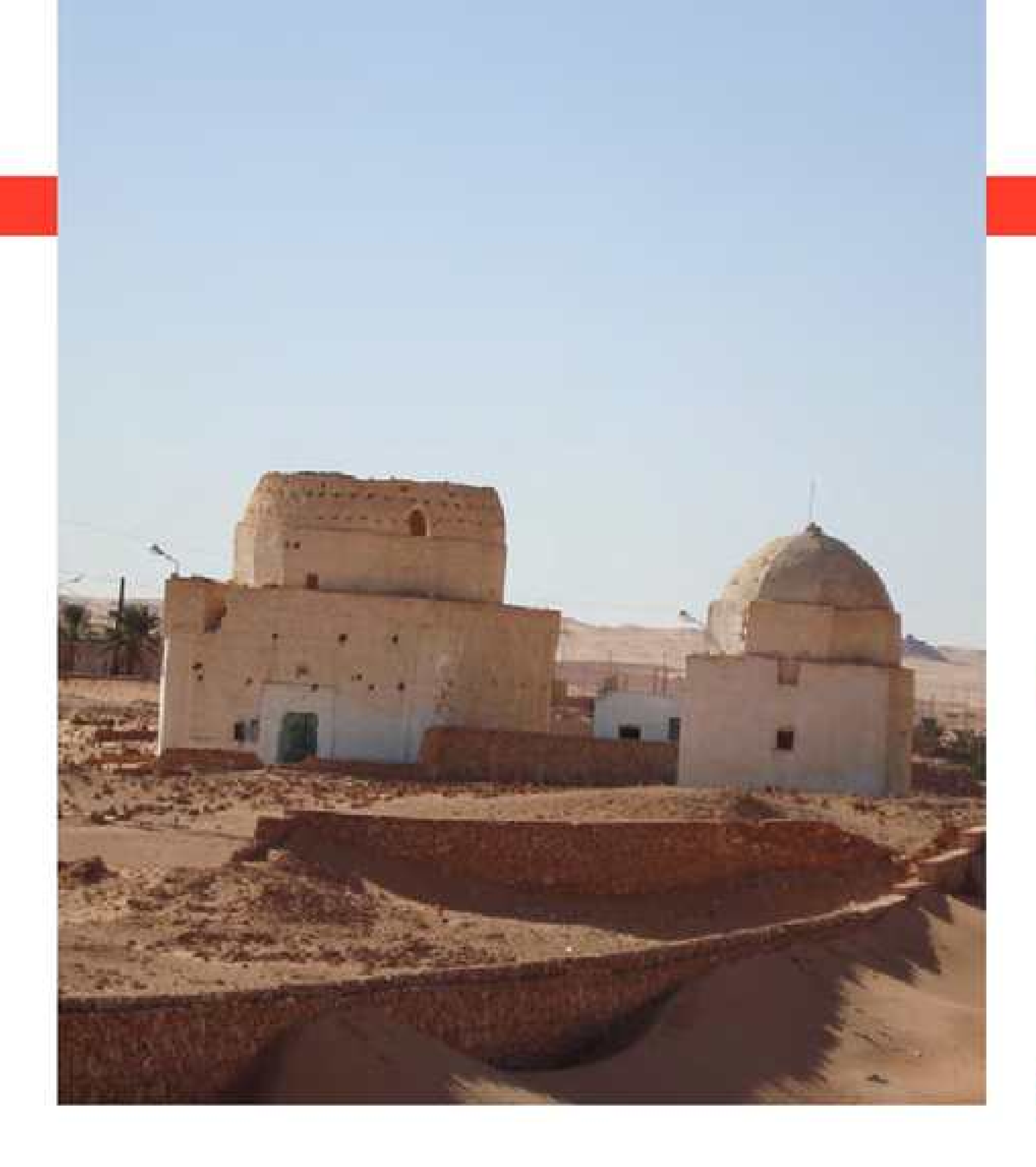
لكن من الخطأ أن تُفهم الحكمة الَّتي أُمرنا بالدَّعوة بها على غير مفهومها الصَّحيح، وذلك باعتبار أنَّ كلَّ شدَّة في الدِّين ليست من الحكمة، بل حيثما أفادت الشِّدة وكانت المصلحة فيها فهي مطلوبة، وقد أباح الله القتال إذا بغت إحدى الطَّائفتين ولم يمكن إيقاف بغيها إلاَّ بالقتال، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحجرات]، وهذا نبيُّ الله موسى أمره الله تعالى أن يلين مع عدوِّه وهو فرعون، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [سورة طه]، واشتدَّ مع أخيه هارون فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: 150].

والنَّبيُّ ﷺ أدَّب بعض الصَّحابة بل من علماء الصَّحابة رضي الله عنهم فلمَّا أطال معاذ بن جبل الصَّلاة بقومه قال له: «أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ!»، ولمَّا قتل حبُّه وابن حبِّه أسامةُ بنُ زيد رضي الله عنه مشركًا نطق بكلمة التَّوحيد قال له: «يَا أُسَامَةَ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ!» قال أسامة: فلا زال يُكرِّرها حتَّى تمنَّيت أنِّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم».

إلى غير ذلك من النُّصوص الَّتي فيها الشِّدَّة وكانت المصلحة في ذلك، والأصل هو الرِّفق في الدَّعوة ومعاملة النَّاس باللِّين والرِّفق، لكن إن دعت الحاجة إلى استعمال الخشونة والشِّدَّة فليستعملها الدَّاعية خاصَّة مع رؤوس أهل البدع الَّذي يظهرون بدعهم ويدعون إليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلاَّ بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النَّظافة والنُّعومة ما نحمد معه ذلك التَّخشين» المجموع (53/28).

والله أعلم وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وآله.





الخرافة عند الطرقيين

عمر الحاج مسعود

إنَّ ممَّن أفسد عقيدة المسلمين قومًا اختلقوا الأباطيل وركَّبوا الأحاجيَّ ونشروا الخرافات غلوًّا في المخلوق وترويجًا للشِّرك ودعوةً للطُّرق الضَّالَّة وتشويها لجمال الإسلام وصدًّا عن السُّنَّة الشَّريفة، فـ«اختلَّت العقائد ولابسها هذا الشَّوب من الخرافات والمعتقدات الباطلة فضعفت ثقتنا بالله ووثقنا بما لا يوثق به»[1].

إنَّ الخرافة ـ وهي الحديث المستملح من الكذب، أو الحكاية المختلقة يُتَعجَّب منها ـ سبب لاستفحال الجهل والدَّجل وانتشار الشِّرك والبدع وفشوِّ الفواحش والإلحاد.

قال العلاَّمة محمَّد البشير الإبراهيمي رحمه الله: «وإنَّك لا تبعد إذا قلت: إنَّ لفشوِّ الخرافات وأضاليل الطُّرق بين الأمَّة أثرًا كبيرًا في فشوِّ الإلحاد بين أبنائها المتعلِّمين تعلُّمًا أوروبيًّا، الجاهلين بحقائق دينهم؟! لأنَّهم يحملون من الصِّغر فكرة أنَّ هذه الأضاليل الطُّرقيَّة هي الدِّين، وأنَّ أهلها هم حملة الدِّين، فإذا تقدَّم بهم العلم والعقل لم يستسغها منهم علم ولا عقل، فأنكروها حقًّا وعدلاً، وأنكروا معها الدِّين ظلمًا وجهلاً؟ وهذه إحدى جنايات الطُّرقيَّة على الدِّين، أرأيت أنَّ القضاء على الطُّرقيَّة قضاء على الإلحاد في بعض معانيه وحسم لبعض أسبابه؟»[2].

(1) «آثار الإبراهيمي» (1/133).
(2) «الآثار» (1/195).

وسأنبِّه ـ إن شاء الله ـ في هذه المقالة على بعض ما ينشره المتصوِّفة ويذيعه القبوريُّون والطُّرقيُّون من حكايات وأحوال عن شيوخهم، وأقوال وأفعال تتعلَّق بالأولياء والصَّالحين، والحقيقة أنَّها خرافات، لا يعضُدُها دليلٌ شرعيٌّ ولا يؤيِّدُها برهانٌ عقليٌّ، ومع ذلك تُعتقد ويُعمل بها ويَتَوارثها جيلٌ عن جيل.

قال العلاَّمة مبارك الميلي رحمه الله في كتابه القيِّم «رسالة الشِّرك ومظاهره»: «الاعتماد في دينهم ـ أي الطُّرقيِّين ـ على الخرافات والمنامات وما يربي هيبتهم في قلوب مريديهم من حكايات، ولا يتَّصلون بالعلماء إلاَّ بمن أعانهم على استعباد الدَّهماء، والرَّدِّ على المرشدين النُّصحاء؛ بتأويل ما هو حجَّة عليهم، وتصحيح الحديث الموضوع إذا كان فيه حجَّة لهم»[3].

وقال: «وتلك عادة المبتدعين من قديم، لا يعنون بمحكم الذِّكر وصحيح الأثر، ولكن بالحكايات المختلقات والأضاليل الملفقات»[4].

لقد أثَّرت الخرافة على عقول الكثير من النَّاس، فآمنوا بأباطيل وخزعبلات ترفضها الفطر السَّليمة وتضحك منها العقول المستقيمة، آمن بها الرِّجال والنِّساء والكبار والصِّغار والجهَّال والمثقَّفون والحكَّام والمحكومون والأساتذة والسِّياسيُّون، بل اعتقدها ـ بكلِّ أسف ـ بعضُ المنتسبين للعلم الشَّرعي.

(3) (ص441).
(4) «رسالة الشرك» (287).

فاعتقدوا أنَّ النَّفع والضَّرَّ بيد السَّحرة والدَّجَّالين والمشعوذين، وأنَّ الشِّفاء والرِّزق والولد عند من يقال عنهم: إنَّهم أولياء وصالحون، وآمنوا بتأثير التَّمائم والأحجار والأشجار والأبراج، وعلَّقوا آمالهم وأفراحهم ومصالحهم بكلِّ ما سبق، ونسُوا الله مولاهم الحقَّ.

صدَّقوا بأنَّ للأولياء قدرةً على إحياء الموتى والتَّحدُّث معهم والمشي على الماء والعروج إلى السَّماء، وقطع المسافات الطَّويلة في لمح البصر أو أقرب، وأنَّهم يجتمعون مع رسول الله ﷺ كلَّ وقت، كما صدَّقوا بالأولياء المجانين[5].

صدَّقوا بوجود ضريح للوليِّ الواحد في أكثر من مكان، قال الميلي: «تجد بناءات كثيرة على مزارات عديدة، كلُّها منسوبة للشَّيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد رحمه الله، وهو لم يعرف تلك الأمكنة ولا سمع بها، وهذه المزارات الجيلانيَّة تجدها غربي وطن الجزائر أكثر منها في شرقه»[6].

وسمعتُ من بعض العامَّة من يقول جازمًا: إنَّ الشَّيخ ـ وهم يقولون: سيدي ـ عبد القادر الجيلاني صلَّى أربعين سنة في البحر على رجل واحدة، وآخر أوقف القطار برجله، وآخر وُجِّه المدْفَع إلى قبَّته، فاحترق ما حولها وانهدم، إلَّا ضريحه فقد بقي شامخًا ولم يُستَطع، والأمثلة كثيرة ومتنوِّعة حسَب الزَّمان والمكان، وعلى فرض وقوع شيء ممَّا ذُكر فهي أحوال وخوارق شيطانيَّة، سببها الشِّرك والفجور، ومعلوم أنَّ المسيح الدَّجَّال الكافر الأعور أوتي ما هو أشدُّ وأكثر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فما كان سببُهُ الكفرَ والفسُوقَ والعصيانَ فَهُوَ من خَوَارِقِ أَعْدَاءِ الله لا من كَرَامَاتِ أولياء الله، فمَنْ كانت خوارقه لا تحصل بالصَّلاة والقراءة والذِّكر وقيام اللَّيل والدُّعاء وإنَّما تحصلُ عند الشِّرك، مثلُ دعاءِ الميِّت والغائب أو بالفسقِ والعصيانِ وأكل المحرَّمات... ومثلِ الغناء والرَّقص، لاَ سيَّما مع النِّسوةِ الأجانب والمردان،... فهذه أحوالٌ شيطانيَّةٌ، وهو ممَّن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦﴾ [الزخرف]»[7].

وقال الشَّيخ عبد المحسن العبَّاد ـ حفظه الله ـ: «وأمَّا إذا كان الأمرُ الخارقُ للعادة جاء في حكايات هي أشبه بالخرافات، لا سيَّما إذا كانت واضحةً في مُخالفة الشَّرع، كالاستغاثة بغير الله من الأموات والأحياء الغائبين، ويُزعم أنَّها كرامةٌ لمن ادُّعيت له الولاية ـ والله أعلم بحقيقة الحال ـ فإنَّه لا يُلتفتُ إليه، ولا يُغتَرُّ به»[8].

ومن الغريب ـ أيضًا ـ أنَّهم يؤمنون بقباب ومشاهدَ وهميَّةٍ من صنع الاستعمار الفرنسي، قال الإبراهيمي: «الكثير من هذه القباب إنَّما بناها المعمِّرون الأوربِّيُّون في أطراف مزارعهم الواسعة، بعد ما عرفوا افتتان هؤلاء المجانين بالقباب، واحترامهم لها، وتقديسهم للشَّيخ عبد القادر الجيلاني، فعلوا ذلك لحماية مزارعهم من السَّرقة والإتلاف، فكلُّ معمِّر يَبني قبَّة أو قبَّتين من هذا النَّوع يأمن على مزارعه من السَّرقة، ويستغني عن الحرَّاس ونفقات الحراسة، ثمَّ يترك لهؤلاء العميان ـ الَّذين خسروا دينهم ودنياهم ـ إقامة المواسم عليها في كلِّ سنة، وإنفاق النَّفقات الطَّائلة في النُّذور لها وتعاهدها بالتَّبييض والإصلاح، وقد يحضر المعمِّر معهم الزَّردة، ويشاركهم في ذبح القرابين، ليقولوا عنه إنَّه محبٌّ في الأولياء خادم لهم، حتَّى إذا تمكَّن من غرس هذه العقيدة في نفوسهم راغ عليهم نزعًا للأرض من أيديهم، وإجلاء لهم عنها»[9].

ومن أغرب ما سمعت ما ذكر لي شخص من منطقة يسَّر ـ شرقيّ مدينة الجزائر ـ أنَّ عندهم قبرًا يُزار ويُتَبَرَّك به، وتُؤْخَذ إليه العروس قبل دخولها على زوجها، وقال: من المتعارف عليه أنَّ النَّبيَّ ﷺ يأتي إلى هذا المكان.

وهكذا تُختلقُ الحكايات وتُنسجُ الأكاذيب للصَّدِّ عن سبيل الله، ولتقديس الأشخاص وعبادتهم من دون الله ـ جلَّ وعلا ـ، فالله المستعان وإليه المشتكى.

قال الميلي: «ألست ترى في أوساطهم قبابًا تبذل في شيدها الأموال، وتشدُّ لزيارتها الرِّحال؟! أم لست تسمع منهم استغاثات وطلب حاجات من الغائبين والأموات! أم لم تعلم بدور تُنعت بدار الضَّمان تشترى ضمانتها بالأثمان! أم لم تجتمع بذرية نسب للمرابطين إعطاؤها بقوَّة غيبيَّة؟! أم لم تتكرَّر عليك مناظر مكلَّفين إباحيِّين يقدِّسون بصفتهم مرابطين أو طرقيِّين؟!»[10].



(5) انظر «رسالة الشِّرك ومظاهره» (ص440)، «الفرقان بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان» لابن تيمية، ومن العجائب أن يقرَّ سعيد حوى بخزعبلات أبناء الطَّريقة الرِّفاعيَّة، ويفتخر بها قائلاً إنَّها «من أعظم فضل الله على هذه الأمَّة» («تربيتنا الرُّوحيَّة» (217 ـ 218).

(6) «رسالة الشرك» (362).

(7) «مجموع الفتاوى» (302/11).

(8) «الرَّدُّ على الرِّفاعي والبوطي» (127).

(9) «الآثار» (321/1).

(10) (ص164).

وقد ذكر في كتابه السَّابق أمثلةً ممَّا يعتقدُه الطُّرقيُّون ويصدِّقُه العامَّة، تُجَلِّي لنا سيطرةَ الخرافات على عقولهم وتغلغلَها في قلوبهم، من ذلك:

الوليُّ عند الطُّرقيِّين والعامَّة وعقيدتهم فيه:

«أمَّا الوليُّ عند النَّاس اليوم؛ فهو إمَّا من انتصب للإذن بالأوراد الطُّرقيَّة، ولو كان في جهله بدينه مساويًا لحماره، وإمَّا من اشتهر بالكهانة، وسمّوه حسب اصطلاحهم «مرابطًا»، ولو تجاهر بترك الصَّلاة وأعلن شرب المسكرات، وإمَّا من انتمى إلى مشهور بالولاية، ولو كان إباحيًّا لا يحرِّم حرامًا، وحقّ هؤلاء الأولياء على النَّاس الجزم بولايتهم، وعدم التَّوقُّف في دخولهم الجنَّة، ثمَّ الطَّاعة العمياء، ولو في معصية الله، وبذل المال لهم... وبعد، فهم المطلوبون في كلِّ شدَّة، ولكلٍّ محتم بهم عدَّة، وهم حماة للأشخاص وللقرى والمدن، كبيرها وصغيرها، حاضرها وباديها؛ فما من قرية بلغت ما بلغت في البداوة أو الحضارة، إلاَّ ولها وليٌّ تنسب إليه، فيقال: سيدي فلان هو مولى البلد الفلاني» (ص179 ـ 180).

ووصلت بهم البلادة والغباوة والتَّخريف في حسن الظَّنِّ بشيوخهم أنَّهم «يدافعون عن منكراتهم بأن شريبهم إنَّما يشرب عسلاً، أو أنَّه يطفئ من نور الولاية الشَّديد غلّته، وبأن زانيهم إنَّما زناه صورة خياليَّة يمتحن بها أهل المرأة ومبلغ عقيدتهم فيه» (ص435).

وهذا ينافي الإيمان والتَّقوى والصَّلاح واتِّباع السُّنَّة؟ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

وذكر قصَّة عن كاهن سكّير ممَّن يُزْعم أنَّه من«المرابطين»، أنَّ رجلاً طلب منه ولدًا ذكرًا، «فأعطاه إيَّاه، وعيَّن له علامة تكون بجسمه عند الوضع، وقال له: إن وضع بها، فهو منِّي، وإن خلا منها؛ فهو من الله» (ص194).

انظر ـ رحمك الله ـ إلى هذا الشِّرك الصَّريح والكفر البَوَاح، ثمَّ انظر إلى من يصدِّقه ويحسن الظَّنَّ به، فأين هم من قول الله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى]؟!

الاعتقاد أنَّ شيوخهم يعلمون الغيب:

ومن فساد العقل وبلادة الذِّهن وتسلُّط الخرافة اعتقادُ الخرافيِّين والعوام أنَّ شيوخهم يعلمون الغيب، ويطَّلعون سرهم ونجواهم، تعالى الله عمَّا يشركون.

«والعوام ينسبون علم الغيب المطلق إلى من اتَّخذوهم أولياء، سواء سمَّاهم الشَّرع أولياء أو كهَّانًا أو سحرة أو مردة أو مجانين، فيخشون في غيبتهم أن يطَّلعوا على ما لا يرضونه منهم، ويشدُّون إليهم الرِّحال استعلامًا عن سرقة، أو استفتاء عن عاقبة حركة، وبوادي القطن ـ قرب ميلة شرقيها ـ كاهن اسمه سيدي مبارك، يأتيه المستطلعون للغيب من مئات الأميال...» (ص210).

وحدَّثه رجلٌ قائلاً: «كنت عند باش تارزي شيخ الطَّريقة الرَّحمانيَّة بقسنطينة أُعلِّم القرآن، وكنت فتى تدعوني نفسي إلى غشيان النِّساء، فلم يكن يمنعني إلاَّ خشية الشَّيخ أن يطَّلع عليَّ من طريق الغيب» (ص 210).

وحدَّثه آخر أنَّه سمع اثنين يتنازعان، «فحلف أحدهما للآخر بسيِّده عبد الرَّحمن بن الحملاوي ـ شيخ من شيوخ الطَّريقة الرَّحمانيَّة ـ... فتغيَّر وجه المحلوف له، وأنكر على الحالف قائلاً: أليس الشَّيخ عالمًا بما يجري الآن بيننا؟ قال محدِّثي: ظننته لأوَّل سماع إنكاره أنَّه ينهاه عن الحلف بالمخلوق؛ فإذا هو يكبره عن الحلف به، ويشركه مع الله في غيبه» (ص211)، سبحان الله! ألم يقرؤوا قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل: 65].

نذر العوام:

ينذرون للأحياء والأموات والجمادات والحيوانات طلبًا لقضاء الحاجات وتفريج الكربات.

«وقد أصبح النَّاس في جاهليتهم الحاضرة ينذرون لمن يعتقدون فيه من الأحياء والأموات والمزارات الأموالَ والثِّياب والحيوانات والشُّموع والبخور والأطعمة وسائرَ المتموّلات، ويعتقدون أنَّ نذرهم سبب يقرِّبهم من رضى المنذور له، وأنَّ لذلك المنذور له دخلاً في حصول غرضهم؛ فإن حصل مطلوبُهم ازدادوا تعلُّقًا بمن نذروا له، واشتدَّت خشيتهم منه، وبذلوا أقصى طاقتهم في الاحتفال بالوفاء له» (ص397).

«ويرون أنَّ روح الصَّالح فلان هنالك؛ إمَّا لأنَّه دفن هنالك، أو جلس به» (ص362).

وصدق الله إذ قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ].

وثالثة الأثافي قولهم في ضمان الجنَّة:

قال الميلي: «وكم شيخ نقل عنه ضمان الجنَّة لمن رآه ورأى من رآه إلى ثلاثة أجيال أو سبعة!! ويوم النّظرة معروف عند التِّيجانيَّة، وهو أنَّ الشَّيخ أحمد بن سالم[11] جمع أحبابه ـ وهم مريدوه ـ من صحراء وهران وغيرها، ووقف بعين ماضي ـ مسقط رأسه قرب الأغواط ـ على ربوة، ووضع على رأسه قطعة ذهبيَّة كبيرة ليُرى، ونادى في جموعه بضمان الجنَّة لمن رآه إلى سبعة أجيال» (ص438).

انظر إلى هذه الخرافة السَّخيفة، الَّتي لم يجرؤ عليها اليهود والنَّصارى: الجنَّة تضمن لمن رأى رجلاً إلى سبعة أجيال، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ]، وقال ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»[12].

تعظيم كلاب الشُّيوخ:

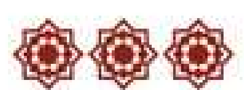
وبلغ الجهل والحمق بالمريدين إلى درجة تعظيم كلاب شيوخهم، «فقد تواتر أنَّ كلاب عبد الرَّحمن بن الحملاوي هامت ذات سنة في عدَّة جهات، فكان النَّاس يكرمونها بالذَّبائح والضّيافات، ولكنَّهم يؤلمونها بانتزاع شعورها تبرُّكًا وزلفى» [«رسالة الشِّرك ومظاهره» (ص441)].



(11) هو التِّجاني الَّذي تُنسب إليه الطَّريقة المعروفة.
(12) رواه التِّرمذي (2450).



هكذا تلاعب الشَّيطان بهؤلاء القوم، حتَّى وصل حالُهم إلى هذه الدَّركات، وكلُّ ذلك بسبب إعراضهم عن الوحي وإيمانهم بالخرافات، وتحكيمهم للعادات والمنامات وإيثارهم آثارَ الآباء والأجداد، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].



ولقد استغلَّ الاستعمار الفرنسي الصَّليبي هذه الغفلة والبلاهة، وركَّز على الخرافة واستعمل لها الطُّرقيِّين والدَّجَّالين لإفساد عقيدة الجزائريِّين وعبادتهم وأخلاقهم، وانتهاك حرماتهم واستغلال خيراتهم وتقويض أصالتهم ولغتهم وقوتهم ووَحدتهم، وإقناعهم أنَّ الجزائر فرنسيَّة، وأنَّ أرض الجزائر هي ملك لفرنسا، والمخالف عدوٌّ ومشاغب، وظهر «تساندُ الطُّرقيِّين والمعمِّرين في الحملة على المصلحين»[13]، وظفر الطُّرقيُّون بحظوة عالية عند السُّلطات الفرنسية، حيث كانت تجازيهم الجزاء الأوفى على إخلاصهم لها، وتفانيهم في خدمة مصالحها، وجهادهم في تضليل الجزائريِّين وتبليههم وتنويمهم.

قال محمَّد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ: «ثمَّ دخل عامل جديد على مباحث الغربيِّين المتعلِّقة بالإسلام، وهو السِّياسة الاستعماريَّة المبنيَّة على إذلال المسلمين وابتزاز أموالهم واحتجاز خيرات أوطانهم، فكان من أسلحة هذه السِّياسة، بعد الحديد والنَّار وتشويه الإسلام وتقبيحه في نفوس أبنائه الجاهلين به، وتشجيع الخرافات لإفساد عقائده، وإلقاء الشُّبهات في كثير من حقائقه، وتزهيدهم بكلِّ الوسائل في أحكامه حتَّى يهجروها، وإذا زاغت العقائد وهجرت الأحكام وسادت الخرافات فأي سلطان ماديٍّ أو معنوي يبقى للدِّين على نفوس معتنقيه؟»[14].

هذه كلمة مُوجَزة في موضوع يحتاج إلى بسط أكثر وشرح أوفر حتَّى تُكشف الخرافة ويظهر ضررها على الدِّين والعقل والأمة، فتُحذَر وتُترك، «فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطرق حكيمة تقرب من أذواق النَّاس، فإذا ماتت البدع والخرافات وصَفَت الفطر من ذلك الشَّوب سَهُلَ تلقين العقيدة الصَّحيحة وتلقَّتها النُّفوس بالقبول»[15].

والله الموفِّق والمعين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(13) «رسالة الشِّرك» (80)، المصلحون هم جمعية العلماء المسلمين وأتباعهم.
(14) «الآثار» (355/4).
(15) قاله الإبراهيمي في «الآثار» (86/1).

بحوث ودراسات

مرشد الخائض في صلاة السادل والقابض عند المالكية

شمس الدين حماش

مرحلة ماستر في العلوم الشرعية

إنَّ مسألة القبض في الصَّلاة من أكثر المسائل تجاذبًا في المذهب المالكي، بين مثبت لسُنِّيَّة القبض، ومن للسَّدل ذَهَبَ، وإن عناية المالكية بهذه الجزئية التي حكمها الاستحباب بالكم الهائل من التَّواليف لَيُنْبِئُ عن نقيضين: تحرُّر فقهي، وتعصُّب مذهبي، على اختلاف المشارب وتباين المدارك؛ إذ منهم من برع في التأليف وخدم المسألة خدمةً بارعة بنفَس أصوليٍّ نفيس، مستندًا لقواعد المذهب ومسالك التَّرجيح المعتمَدة؛ كالشَّيخ المسنَاوي وابن عزُّوز، ومنهم من اكتَفى بالنقل عن سابقه دون زيادة تحقيق أو استدلال دقيق، ومن القوم من أشهر سَوط التَّقريع، وركب غمار التَّشنيع، وكتاب مايابي من ذاك الصَّنيع.

وعليه، سأحاول الخَوض في غمار المسألة والكشف عن حرفها، وتتبُّع ما سطِّر فيها من مطبوع ومخطوط، وقد أحكُم على الكتاب بما يقتضي المقام، وحيث لم أطَّلع على الكتاب اكتفيتُ بذكر عنوانه ومؤلِّفه مع العَزو إلى مكان تواجده.

تعريف القبض:

لغة: قال ابن فارس: القاف والباء والضاد أصل واحد صحيح يدل على شيء مأخوذ، وتجمع في شيء[1].

اصطلاحا: أخذ اليمنى باليسرى واضعا لها تحت الصدر وفوق السرَّة[2]، وعبَّر عنه بعض علماء المغرب والأندلس بمصطلح التكتيف[3].

تعريف السَّدل:

لغة: قال ابن فارس: السين والدال واللام أصل واحد يدل على نزول الشيء من علو إلى سفل ساترا له[4].

اصطلاحا: إرسال اليدين للجَنْبِ[5].

تحرير محل النزاع:

اتفق علماء المالكية على مشروعية اعتبار هيئة معينة لليدين في الصلاة، ثم اختلفوا في صفة تلك الهيئة؛ فمنهم من قال بسدلهما، ومنهم من ذهب إلى اعتماد القول بقبضهما.

حكاية الأقوال:

تنحصر أقوال علماء المذهب في مسألة القبض في خمسة:

القول الأوَّل: القول باستحباب القَبض في النَّفل والفرض وترجيحه على السَّدل.

وهو قول مالك في «الواضحة»، وسماع القرينَين عبد الله ابن نافع وأشهب، ومُطَرِّف، وابن الماجشون، وابن وَهب، وابن زياد، وابن عبد الحَكم، وابن حَبيب، وسُحنون، ويُعزى إلى أهل المدينة، وإليه ذهب القاضي عبد الوهَّاب، وابن عَبدُوس، وابن أبي زَيد، وابن بشير، واختاره محقِّقو المذهب؛ من بينهم ابن عبد البرِّ، واللَّخميُّ، وابن رُشد، وحفيدُه أبو الوليد، وابن العربي، والقاضي عِياض، وابن الحاجِب، والقَرافي، والرَّجراجي، والقُرطبي، وابن عبد السَّلام، وابن عَرفة، وابن الحاج، والموَّاق، والقَلشاني، وابن جُزَي، والقَبَّاب، والثَّعالبي، والسَّنوسي، وأحمد زرُّوق، والسَّنهوري، والأجهُوري، والعيَّاشي، والخرْشي، والشَّبرْخيتي، وعبد الباقي، ومحمَّد ابنه، والمسناوي، والبُنَّانيُّ، وسلَّمه الرَّهوني مع دقَّة انتِقاده، والسُّوداني، والعَدوي، والدَّردير، والدَّسوقي، والصَّاوي، والأمير، وحِجازي، وعلِّيش، وابن حَمدون، والسَّفطي،

(1) «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (50/5).
(2) انظر: «شرح الخرشي على خليل» (286/1)، «منح الجليل» لعليش (262/1)، «حاشية الدسوقي» (250/1)، «الشرح الكبير» للدردير (250/1).
(3) «هيئة الناسك» (56).
(4) «معجم مقاييس اللغة» (149/3).
(5) انظر «الشرح الكبير» للدردير (250/1).

والشَّيخ محمد كنون، وغيرهم[6].

القول الثَّاني: القول بالكراهة مطلقًا.

وهو قولٌ آخر لمالك، ومذهب «المدونة» التَّخصيص بالفَريضة، ورجَّح في «البيَان والتَّحصيل» الكراهةَ فيهما، إلاَّ إن طال القيام[7].

القول الثَّالث: القول بالإباحة والتَّخيير بين القَبض والسَّدل.

هو قول مالك في سماع القرينَين، كما نقله ابنُ رُشد في «البيان»، وجاء مثلُه عن أشهَب[8]. واختاره ابن عبد البر في «الكافي»[9].

القول الرَّابع: القول بمَنعه فيهما.

حكاه البَاجي عن العِراقيِّين في إحدى رواياتهم، وتبِعه ابنُ عَرفة، وهو من الشُّذوذ بمكانٍ، كما صرَّح المسنَاوي[10].

القول الخامس: استحباب السَّدل.

لرواية ابنِ القاسم في «المدونة»، والسَّهرودي، والزُّرقاني، والرَّهوني، وكنون، وشهَّره الخِرشي، والتتائي، والدَّردير، واختاره ابنُ عاشر[11].

□□□

ومَرَدُّ هذه الأقوال إلى قولَين؛

الأوَّل: القول باستحباب القَبض.

الثَّاني: القول باستحباب السَّدل.

□□□

■ وحاصل استدلال الفريقَين نلخِّصه في الآتي:

أوَّلاً. الأحاديث الواردة في القَبض والإرسال:

□ احتجَّ المستدلُّون للقَبض بالأحاديث الواردة في ذلك، وهي نحوٌ من عشرين حديثًا، عن نحوِ ثمانيةَ عشر صحابيًّا؛ منها حديث سَهل بن سعد قال: «كان النَّاس يُؤمرون أن يضعَ الرَّجلُ اليدَ اليُمنى على ذراعه اليُسرى في الصَّلاة»[12]، وعن وائل ابن حُجر في صفة صلاته ﷺ، وفيه: «ثمَّ الْتَحفَ بثوبِه، ثمَّ وضَع يده اليُمنى على اليُسرى»[13].

□ أمَّا القائلون بالإرسال؛ فعُمدتهم حديث المسيء صلاتَه، وحديثُ أبي حُمَيد السَّاعدي[14]، ووجهُه أنَّه بيَّنَ فيهما المستحبَّات والواجبات، ولم يذكُر القَبض، ومجرَّد العموم كافٍ في مطلَق الاحتجاج[15]، وردُّ حديث سَهل بكَونه منسوخًا، ويدلُّ عليه عمل راوِيه بخلافه، فهو أدرَى بمَروِيِّه.

□ ويرفع الخلافَ:

ما جاء في «الموطأ» فهو عُمدة المالكية، قال مالكٌ: «بابُ وَضع اليدَين إحداهما على الأخرى في الصَّلاة»، ثمَّ ساق حديثَين في الباب[16].

وقاعدة المذهَب: أنَّ قول مالك في «الموطأ» مقدَّم على قوله في غيره، وأنَّ مالكًا لم يُدخل في كتابه إلاَّ الأحاديث الَّتي عليها العملُ.

قال الهَسكُوري: «إنَّما يفتَى بقول مالك في «الموطأ»، فإن لم يجده في النَّازلة فبقوله في «المدونة»»[17].

□□□

ثانيًا. رواية ابن القاسم عن مالك في «المدونة»:

جاء في «المدونة» ما نصُّه: «باب الاعتِماد في الصَّلاة والاتِّكاء ووَضع اليد على اليد».

قال: وسألتُ مالكًا عن الرَّجل يصلِّي إلى جَنب حائط فيتَّكئُ على الحائط؛ فقال: أمَّا في المكتوبَة فلا يُعجِبني، وأمَّا في النَّافلة فلا أرى به بأسًا. قال ابنُ القاسم: والعصَا تكون في يده عندي بمَنزلة الحائط. قال: وقال مالكٌ: إن شاء اعتَمد، وإن شاء لم يعتَمد ـ وكان لا يكرَه الاعتماد ـ.

قال: وذلك على قَدرِ ما يرتَفق به، فلينظُر أرفقَ ذلك به فليَصنَعه.

قال: وقال مالكٌ في وضع اليُمنى على اليُسرى في الصَّلاة، قال: لا أعرف ذلك في الفَريضة ـ وكان يكرَهُه ـ، ولكن في النَّوافل إذا طالَ القيامُ فلا بأس بذلك، يُعين به نفسَه.

قال سُحنون: عن ابن وَهب، عن سفيانِ الثَّوري، عن غيرِ واحد من أصحاب رسول الله ﷺ: «أنَّهم رأَوا رسولَ الله ﷺ واضِعًا يده اليُمنى على اليُسرى في الصَّلاة»[18].

□ استدلَّ القائلون بالسَّدل بظاهرِ قول مالك: «لا أعرف ذلك في الفَريضة» على كراهَة القَبض، وحُملت الكراهةُ على ثلاثة تأويلات ذكَرها خليلٌ في «المختصر» بقوله: «وسَدلُ يدَيه، وهل يجُوز

(6) انظر «حاشية البناني على الزرقاني» (214/1)، «هيئة الناسك» (154).
(7) «البيان والتحصيل» (394/1).
(8) المرجع السابق (395/1).
(9) «الكافي في فقه أهل المدينة المالكي» (206/1).
(10) «المنتقى شرح الموطأ» (302/2).
(11) «القول الفصل لتأييد سنة السّدل» (35).
(12) مالك في «الموطأ» (376)، وعنه البخاري (740).
(13) «صحيح مسلم» (401).
(14) حديث أبي حميد الساعدي في صفة الصلاة رواه أبو داود (730).
(15) «نصرة الفقيه السالك» (14).
(16) «الموطأ» برقم (375 ـ 376).
(17) «فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك» (73/1).
(18) «المدونة» (169/1).

القَبض في النَّفل، أو إن طوَّل؟ وهَل كراهَتُه في الفَرض للاعتِماد، أو خيفَةَ اعتِقادِ وُجوبِه، أو إظهار خُشوعٍ؛ تأويلاتٌ»[19].

□ أمَّا القائلون بالقَبض؛ فلهُم مسالِكُ في تأويل ما جاء عن مالِك:

المسلك الأوَّل: في إجمال خليل للتَّأويلات الثَّلاث. قالوا: أمَّا الثَّاني والثَّالث فمُمتَنع لانسحابهما على النَّفل، فيلزمُ الأوَّل، وهو قصدُ الاعتماد، فيُصار إلى القَول بالكراهة إذا قُصد الاعتماد، بالنَّظر إلى علَّة الحُكم وهو تعليلٌ بغير المظنَّة، ذلك أنَّ قصد الاعتماد يدور مع العلَّة وجودًا وعدمًا، وغيرُ ملازِم لها.

المسلك الثَّاني: في اعتبار نسق «المدونة»؛ إذ يُنبئ على تخصيص الكراهَة بقصد الاعتماد، لقَوله ـ سحنون ـ: «الاعتماد في الصَّلاة والاتِّكاء ووَضع اليد على اليد»، ثمَّ أورد مسائلَ في ذلك منها القَبض، أعقَبه بذِكر أثرٍ عن غير واحدٍ من الصَّحابة «أنَّهم رأَوا رسولَ الله ﷺ واضعًا يدَه اليُمنى على اليسرى في الصَّلاة».

قال الشَّيخ ابن عزُّوز: «وبه تَعرف مراد ابن القاسم بالكراهَة إلى أين توجَّه، ومرادَ سُحنون وهو المتلقِّي إملاءَ المدونة، للّه درُّه ما أدقَّ نظرَه، وما أبصرَه بحسن تنسيق الإفادة؛ حيث خشِي أن تؤخَذ الكراهةُ الَّتي رواها عن ابن القاسم مطلقَةً مغفولاً عن قيدِها بقصد الاعتماد ـ وقد وقع ـ؛ فأعقبَها بثُبوت سنِّيَّتها إشعارًا بطرَفَي المسألة، رحمه الله»[20].

المسلك الثَّالث: في اصطِلاح قول مالك لجِنس المَشروع: «لا أعرِفه».

قال ابنُ رشد في تفسير إنكار مالك: «أنكَر وجوبَه وتعينه، لا أن تركَه أحسنُ من فعلِه؛ لأنَّه من السُّنن الَّتي يُستَحبُّ العمل بها عند الجَميع»[21].

ونحو هذا التَّأويل لابن بشير وابن العربي لكل إنكار مالك لما هو من جِنس المشروع[22].

□□□

ثالثًا ـ الاحتجاج بعمل أهل المدينة:

احتجَّ القائلون بالسَّدل بعمل أهل المدينة؛ ذلك أنَّ مالكًا ترك العمل بالقَبض رغم روايتِه حديثَه في «الموطأ»، فهو من قَبيل الخبر المعارِض لعمل أهل المدينة، وتدلُّ عليه روايةُ ابن المسيِّب بذلك[23].

أُجيبَ عن هذا الاعتراض بمسلكَين: تأسيسٌ، وتنصيصٌ.

أمَّا التَّأسيس: في تحرير القَول بحجيَّة عمل أهل المدينة؛ إذ المعتبَر فيه إجماعُهم لا مجرَّد عملِهم، كما حقَّقه فُحول المذهب.

أمَّا التَّنصيص: فمِن وجهين:

الأوَّل ـ في إثبات دعوى الإجماع:

لم يدَّعِ أحدٌ من أهل الكتُب المعتمَدة أنَّ السَّدل من عملِ أهل المدينة قبلَ التَّتائي، وحكاهُ الدَّردير ولم يُثبته، ومثلُه الصَّاوي ثمَّ كرَّ عليه، وتبِع التَّتائي محمَّد علِّيش في «فتح العلي المالك»، وادَّعاه محمَّد عابد في «القول الفصل»، وابنُ مايابي في «إبرام النقض»، ولم يثبُت عن مدنيِّي السَّلف المعتبَر إجماعُهم سوى ما قِيل عن ابن المسيِّب وحدَه. قال الشيخ الغماري: «إنَّ عمل أهل المدينة بالسَّدل لم ينقله أحد من خلق الله، وإنما صار عملا لهم بعد مرور ألف سنة عليهم وهم في قبورهم!»[24].

الثَّاني ـ في نقض دعوى الإجماع:

إنَّ عمل السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين لا زال على القَبض، ولم يرد السَّدل عن أحدهم قطُّ، بل تواطأَ المدنيُّون في رواية القَبض عن مالكٍ إمامِ أهل المدينة[25].

□□□

رابعًا ـ المنازَعة في تشهير أحد القَولين:

من قواعد التَّرجيح المتجاذَبة بين علماء المذهَب، والَّتي سُلكَتْ لدَفع تعارض الأقوال: خلافُهم في تقوية القول المشهُور على الرَّاجح، أو تقديم الرَّاجح على المشهور، وهذا الأخير استقرَّ عليه اصطلاحُ المذهب؛ فإنَّ الرَّاجح هو ما قوِي دليلُه، والمشهور ما كثُر قائله[26]، وقيل إنَّ المشهور هو قول ابن القاسم في «المدونة»[27]، وإنَّما قدِّم الرَّاجح؛ لأنَّ قوَّتَه نشأت من الدَّليل نفسِه من غير نظرٍ للقائل، أمَّا المشهور فنشأت قوَّتُه من القائل.

قال القَرافي: «وكان مالكٌ يراعِي ما قوي دليلُه لا ما كثُر

(19) «مختصر خليل» (30).

(20) «هيئة الناسك» (82).

(21) «البيان والتحصيل» (361/1) بتصرُّف.

(22) انظر «هيئة الناسك» (83). قال العلاوي: قوله «لا أعرفه»: أي لا أعرف كون الإنسان يقصد الاعتماد على يديه، وإذا وقع ونزل، فلا يعجبني هذا القصد في الفريضة، ولا بأس بذلك في النافلة ولو قصده، فلا يلزمه حينئذ ترك القبض بل تصحيح القصد. «نور الإثمد في سنة وضع اليد على اليد» (26).

(23) انظر «القول الفصل في تأييد سنة السدل» لمحمد عابد (31)، «إبرام النقض لما قيل من أرجحية القبض» لابن مايابي (62).

(24) رفع شأن المنصف السالك وقطع لسان المتعصب الهالك في إثبات سنية القبض في الصلاة على مذهب الإمام مالك، للشيخ أحمد بن الصديق الغماري (16).

(25) انظر «هيئة الناسك» (118 ـ 121).

(26) انظر «جواهر الإكليل» للأبي (4/1)، «حاشية الدسوقي» (20/1)، و«كشف النقاب الحاجب عن مصطلح ابن الحاجب» لابن فرحون (68 ـ 72)، و«منح الجليل» لعليش (20/1).

(27) «كشف النِّقاب الحاجب» (62).

قائله»، ومثله عن ابن العربي وابن عبد السَّلام[28].

وعليه تنازَع الفريقان في تقديم أحد القَولين.

□ فذهب الفريق الأوَّل إلى تشهير القَول بالسَّدل لكثرة قائله، ولكونه روايةَ ابن القاسم في «المدونة»، والقاعدة عندَهم «إذا اختلفَ النَّاس عن مالك؛ فالقول ما قال ابنُ القاسم»[29]، ويدلُّ على سلامة هذا القولِ تصديرُ خليلٍ له في «المختصر»، حيث قال: «وسدلُ يدَيه، وهل يجوز القَبضُ في النَّفل، أو إن طوَّل»[30]، فكان ممَّا تجب به الفَتوى كما بيَّنه في خُطبته[31].

□ وقد اعترض الفريقُ الثَّاني على هذا الاستدلال بما يلي:

أوَّلاً: تقرير وجوب العمل بالرَّاجح وتقديمه على المشهور، كما حققه فحول المذهب.

ثانيًا: عدم التَّسليم بتشهير القَول بالسَّدل لكثرة القائلين به، ذلك أنَّ أكثر علماء المذهَب قائلون بالقَبض كما حقَّقه ابنُ عزُّوز؛ إذ أفاض في تسمية القائلين بالقَبض ففاقَ بهم الخمسين.

وعليه فقد اجتمع في القَبض قوَّةُ الدَّليل وكثرةُ القائل.

ثالثًا: تحرير القَول فيما اختُلف فيه عن مالك؛ بأنَّ أنَّ مالكًا وأصحابَه قائلون بالقَبض إلاَّ ما انفرَد به ابنُ القاسم، فتُرَجَّحُ رواية الأكثَر على رواية الأقلِّ.

بل إنَّ ابنَ القاسم قد فارَق مالكًا، ويدلُّ عليه قولُ سحنون: «أنا عند ابن القاسم بمصر وكُتب مالك تأتيه»[32].

والمدنيُّون الَّذين روَوا القَبض عن مالك حاضرون وفاتَه، وقد سُئل مالكٌ: لِمَن هذا الأمر بعدَك؟ قال: «لابن نافع»[33].

فتبيَّن بهذا رجوعُ مالكٍ عن القَول بالسَّدل. على ظاهر رواية ابن القاسم .، والعمل على ما رواهُ أهل بلدِه الملازِمون له إلى وفاتِه[34].

□□□

هذا أهمُّ ما استدلَّ به الفريقان، بالإضافة إلى أدلَّة أخرى كالقَول بالنَّسخ، والاحتجاج بجرَيان العمل، وشرعِ مَن قبلنا، وهي مبسوطةٌ في كتُب هذا الشَّأن، والَّتي سيرِدُ ذكرُها فيما يأتي.

(28) انظر «أحكام القرآن» لابن العربي (114/2)، «نور البصر في شرح المختصر» للهلالي (156)، «مواهب الخلاق شرح لامية الزقاق» (237/2)، «هيئة الناسك» (133)، «نظم المعتمد من الكتب والفتوى (بوطليحية)» للنابغة الغلاوي (114).

(29) «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» (49/1).

(30) «مختصر خليل» (30).

(31) انظر «نصرة الفقيه السالك» (15) وما بعده.

(32) «الديباج المذهب» (160).

(33) «ترتيب المدارك» (356/2).

(34) انظر «هيئة الناسك» (133، 146).

سبب الخلاف:

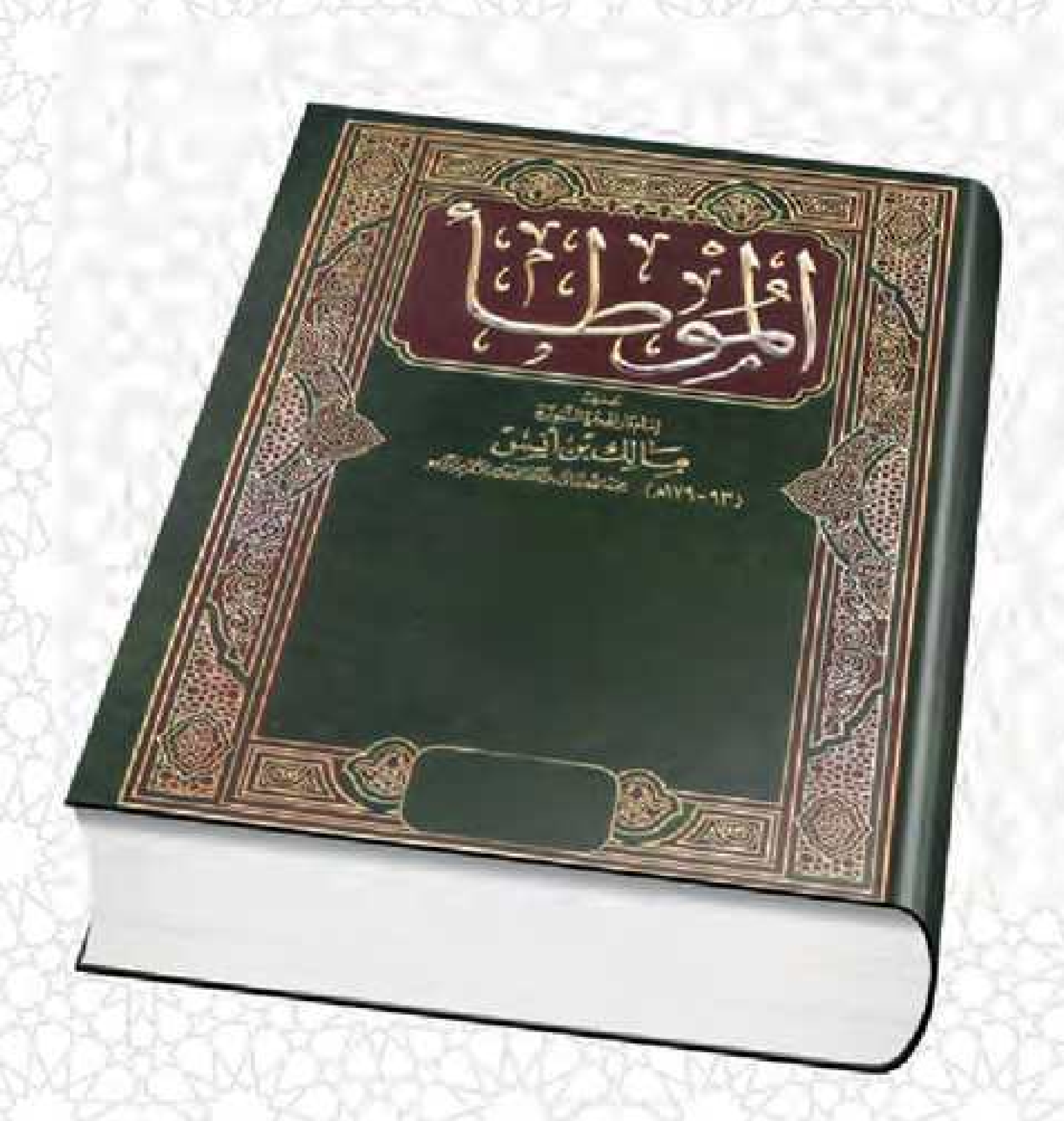
أرجع ابن رشد سبب الخلاف في المسألة إلى اختلاف الآثار الناقلة للقبض من عدمه، حيث قال: «والسَّبب في اختلافهم أنه قد جاءت آثار ثابتة نُقلت فيها صفة صلاته عليه الصلاة والسَّلام، ولم يُنقل فيها أنه كان يضع يده اليمنى على اليسرى، وثبت أيضا أن الناس كانوا يؤمرون بذلك»[35].

والأظهر أن سبب الخلاف هو رواية «المدونة» التي ظاهرها كراهة القبض؛ ذلك أن السَّدل لم يُعرف في أحد من المذاهب خلا المالكي، وأن القائلين به مستندون إلى قول مالك غير معتنين بالآثار المروية إلا لاستدلال موافق لمشربهم[36]. وأما ما ذكره بعضهم أن الخليفة المنصور ضرب الإمام على يده، فشُلَّت فكان منه أن سدل؛ فهي رواية واهية، لا زمام لها ولا خطام!

□□□

(35) «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» (137/1).

(36) يدل عليه قول الكافي: «إن حضرة الأستاذ ـ ابن عزوز ـ ليس مالكي المذهب بل هو مجتهد يتبع ما صح عنده من الآثار! وإنما ينتسب لمالك تسترا كما فعل غيره قبله!!»، وقال: «وكنت اجتمعت مع بعض علماء اليمن سنة ألف وثلاثمائة وستة وعشرين؛ فتذاكرنا مليا حتى سألني عن حضرة الأستاذ، فقلت له: أعرفه، فأثني عليه وقال لي: إنَّه يعجبني حيث لم يتعصب لمذهب، وإنما مذهبه الحديث. ولا واحدة من المسائل يقول بها مالكي، فلو أظهر مذهبه وقال: لم يثبت عندي السدل وإنما ثبت عندي القبض، لأراح نفسه وأراح الناس.فلا يلتبس حينئذ على الناس». نصرة الفقيه السالك (43،50).



■ ذكرُ المؤلَّفات الَّتي عُنِيت ببَحث مسألة القَبض عند المالكيَّة:

□ الكتاب الأوَّل: «شفاء السَّالك في إرسال مالك» تأليف: الملا علي بن سلطان محمَّد القاري الحنفي، المتوفَّى سنة (1014هـ).

أصله مباحَثةٌ جرت بين الشَّيخ القاري وبعض الأفاضل عن مأخذ مالك في قوله بالإرسال، حيثُ استَنَد إلى تحرير القُرطبي للمسألة، ثمَّ عمد إلى الإيراد الثَّاني وهو: السَّدل تجنُّبًا للاعتماد المنهي عنه في حديث أبي داود[37]، واجتهد في دفع التَّعارض الوارد مع ما روي في «الصَّحيحين» من القول بالوضع، معتذرًا للإمام في اجتهاده، ممَّا يدلُّ على أنَّه لم يطَّلع على أمَّهات الفقه المالكي، ولم يتتبَّع أصول المسألة وأطرافَها، كما أفادَه ابنُ عزُّوز[38].

□ الكتاب الثاني: رسالة في الرَّد على علي القاري تأليف الشيخ محمد مكين، ذكرها المحبي في ترجمة القاري بقوله: «واعترض على الإمام مالك في إرسال اليد في الصلاة وألف في ذلك رسالة فانتدب لجوابه الشيخ محمد مكين وألف رسالة جواباً له في جميع ما قاله ورد عليه اعتراضاته»[39].

□ الكتاب الثَّالث: «نُصرة القَبض والرَّد على من أنكر مشروعيَّته في صلاة الفَرض» تأليف الشَّيخ أبي عبد الله محمَّد المسناوي الفاسي، المتوفى سنة (1136هـ).

قسَّم المسناوي رسالتَه إلى ثلاثة مباحِث:

المبحث الأوَّل: في حكم القبض في صلاتَي النَّفل والفرض، حكى الخلاف القائم في المذهب وحرَّر القول فيه، ثمَّ ضرب بسهم وافِر في الاحتجاج للقبض، وساق الأدلَّة القاضية بمشروعيَّته.

المبحث الثَّاني: في القول بالتَّقليد وما ورد في القول بالانتقال من مذهب إلى آخر من تخفيف وتشديد.

أمَّا المبحث الثَّالث: في رَدِّ ما عُدَّ لنَقْضِ القَبْض، من ذلك القول بعدم روايته عن الإمام مالك، أو عدم مشهوريَّته، وجريان العمل بخلافه عند أهل المغرب.

(37) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نهَى رسولُ الله ﷺ أن يجلس الرَّجلُ في الصَّلاة وهو معتمدٌ على يده» أخرجه أبو داود برقم (992).

(38) وتبعه في ذلك المحقِّق فلم يحقِّق! فإنَّ السَّدل لم يأت عن الإمام قطُّ إذا عرفت تقييده بقصد الاعتماد، ولم يختصَّ المتأخِّرون بهذا التَّأويل كما زعم المحقِّق، كيف وسُحنون بَوَّبَ له بقوله: (الاعتماد في الصَّلاة والاتِّكاء ووضع اليد على اليد)، ثمَّ ذيَّله بذكر حديث القَبض!

(39) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (186/3).

يجدُر القول إنَّ المسناوي قد خدم المذهب خدمةً جليلةً بجمعه شتات المسألة، وتحريره موطن النِّزاع، مع الإسهاب في الانتصار لسنة القبض.

□ الكتاب الرابع: «الدَّليل الواضح لبيان أن القبض في الصَّلوات كلها مشهور واضح» لأبي عبد الله المسناوي، مطبوع.

□ الكتاب الخامس: «رسالة في القبض»، تأليف محمد بن أبي بكر الديماني المالكي المتوفى سنة (1166هـ)، جمع فيها جملة من أحاديث القبض، وكلام المالكية في المسألة[40].

□ الكتاب السادس: «شِفَاءُ الصَّدر بأَرْيِ المسائل العشر» تأليف الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي الجزائري، المتوفى سنة (1276هـ).

أورد الخطابي عشر مسائل يكثر حولها النزاع في المذهب، من بينها مسألة القبض، إلا أنه اكتفى بحكاية الخلاف الذي حرره ابن عرفة، ناقلا ذلك عن المسناوي، ومختصرا لما أورده في رسالته «نصرة القبض».

□ الكتاب السَّابع: «تبصرة القضاة والإخوان في وضع اليد وما يشهد له من البرهان»: تأليف الشيخ حسن العدوي الحمزاوي المالكي المتوفى سنة 1303هـ، طبع بمطبعة بولاق سنة (1286هـ)، وتوجد منه نسخة مخطوطة بالمكتبة الأزهرية، فهرس الفقه المالكي برقم: (303450).

□ الكتاب الثامن: «تقييد الرَّد على من يقبض في صلاة الفرض»، لعبد الله بن خضرا قاضي فاس المتوفى سنة (1323هـ)، طبع مع فتوى في المسألة لأحمد بن خياط الزكَّاري المتوفى سنة 1343هـ، محفوظ بالخزانة العامة بالرباط برقم (1724د).

□ الكتاب التاسع: «المبرَّة في أنَّ القبض في الصَّلاة هو مذهب إمام دار الهجرة» تأليف الشَّيخ محمَّد المكِّي بن عزُّوز، ذكره في «كشف الظنون» (2/424)، ولعلَّ المؤلِّف قصد كتابه هذا في قوله: «ولسنا الآن بصدد بيان ما تحرَّر بالنَّظر من خلاف الأيمة في الأمور المتعلِّقة بوضع اليدين، وقد حرَّرناه في غير هذا بموازنة الأدلَّة وأوضَحنا الأصوَب في ذلك»[41].

□ الكتاب العاشر: «هيئة النَّاسك في أنَّ القبض في الصَّلاة

(40) «الصَّوارم والأسنَّة في الذَّبِّ عن السُّنَّة» لأبي مدين (71).
(41) «هيئة الناسك» (140).

هو مذهب الإمام مالك» تأليف الشَّيخ محمَّد المكِّي بن عزُّوز المتوفى سنة 1334هـ.

هذا الكتاب من أَجَلِّ ما أُلِّفَ في الباب؛ ذلك أنَّ صاحبه هو الشيخ المكِّي بن عزُّوز المتبحِّر في الفنون، والمدرك لمبالغ الظُّنون، استهلَّه بمقدِّمة في وجوب الصَّدع بالحق المعلوم، وقسَّمه إلى عشرة أبواب؛ تعاطى فيها تفصيل ما أجمل، وتوضيح ما أشكل في مسألة القبض، حيث أفاض في تسمية القائلين باستحباب القبض بجمع لم يُسبَق إليه، وقرَّر عدم جواز الإفتاء بكراهة القبض في الصَّلاة إلا مقرونًا بقصد الاعتماد؛ لأنَّه المرجَّح من تأويلات الكراهة، وبيَّن ثبوت القبض عن النبيِّ ﷺ قولاً وفعلاً وتقريرًا بصفة تبلغ حدَّ التواتر، ثم تقصَّى ما استُدِلَّ به للسَّدل، وبيَّن ضعفه وغرابته وعدم ثبوته في السُّنة، ولا عن أحدٍ من الصَّحابة إلاَّ ما روي ضعيفًا عن ابن الزُّبَير رضي الله عنه، بل ثبت عنه خلافُه، أمَّا ما جاء عن الأيمة فلا يصلُح للاحتجاج، ثمَّ بيَّن معنى الرَّاجح والمشهور، وأنَّ القبض اجتمع له قوَّةُ الدَّليل وكثرةُ القائل.

أهمُّ ما انفردت به هذه الرِّسالة عن غيرها هو الطَّابع الفقهي المتين المبنيُّ على قواعد الأصول ومسالك التَّرجيح المعتمَدة في المذهب، فكانت بحقٍّ أصلاً في الباب خدَم بها الشَّيخُ مذهبَ مالك خدمةً جليلةً. وكلُّ من كتب بعده فهو عالةٌ عليه.

□ الكتاب الحادي عشر: «نُصرة الفقيه السَّالك على مَن أنكر مشهوريَّة السَّدل في مذهب الإمام مالك» تأليف الشَّيخ محمَّد ابن يوسف الحَيدري التُّونسي الشهير بالكافي، والمتوفى سنة (1380هـ).

تصدَّى الشَّيخ الكافي في هذه الرسالة للرَّد على كتاب «هيئة النَّاسك» للشَّيخ ابن عزُّوز، واجتهد في إثبات ما نفاه صاحب الهيئة، كما استدل للسَّدل بالحديث والأثر، وبيَّن أنَّ المشهور ما كثُر قائله، وقَرَّرَ وجوب الإفتاء بالسَّدل ولو بانَ ضعفُه لجَريان العمل به، وهذا تجاوُز من المؤلِّف، وذلك من وجهَين: الأوَّل في إثبات دعوى إجراء العمل بنصٍّ ظاهر؛ حيث بانَ أنَّ كثيرًا من علماء المغرب قائلون بالقَبض، الثَّاني: في اعتبار شروط إجراء العمل؛ فإن قُصرَ العمل على أهل المغرب لم يجُز تعديتُه إلى محلٍّ غيره، ثمَّ تحقُّق المصلحة القاضية بإجراء العَمل وإلاَّ وجبَ الرُّجوع إلى المشهور، ثمَّ النَّظر في مُجْري العَمل والبحث في أهليَّته إذ اشترطوا فيه الاجتهاد، وهذا مفتقَدٌ في دعواه.

□ الكتاب الثَّاني عشر: «أعذَب المقال في أدلَّة الإرسال» لمحمَّد عابد، أفاده الكافي في «نصرة الفقيه السالك» (12).

□ الكتاب الثالث عشر: «القَول الفصل في تأييد سُنَّة السَّدل» تأليف الشَّيخ محمَّد عابد، المتوفى سنة (1341هـ).

انبرى الشَّيخ محمَّد عابد للرَّدِّ على رسالة «هيئة الناسك» لابن عزُّوز، ويختلف عن سابقه من حيث عنايتُه بالصِّناعة الحديثيَّة؛ إذ سعى في إبطال القول بالقبض بزعمه أنَّ أحاديثه كلَّها بين مضطَرب وموقوف وضعيف، ثمَّ عمد إلى تضعيف ما قرَّره ابن عزُّوز من مشهوريَّة القبض متأوِّلاً كلام الأيمَّة، وزعم أنَّ السَّدل في المذهب بلغ حدَّ التَّواتر، وصار من قبيل المعلوم الضَّروري.

يُعاب على الشَّيخ عابد اعتمادُه على أقوال المتأخِّرين، وإهمالُه لأقوال المتقدِّمين في اعتبار مسالك التَّرجيح، وتقرير قواعد المذهب، أمَّا ما ذهب إليه من وجوب التَّقيُّد بقول الإمام؛ معارَضةٌ صريحة للنُّصوص القاضية باتِّباع الدَّليل، وعدم مفارَقته إذا ظهَر؛ لازمُه القولُ بعصمة الأيمَّة، وهذا منتقَد، وما جرَّه إلى ذلك إلاَّ نزعةُ التَّقليد الطَّاغية على كتابه.

□ الكتاب الرَّابع عشر: «أعذب المقال في أدلَّة الإرسال»، لمحمد عابد، أفاده الكافي في نصرة الفقيه السالك (12).

□ الكتاب الخامس عشر: «الحجة البيضاء على إثبات استحباب السدل وكراهية القبض في الصلاة»، تأليف المهدي محمد الوزاني، المتوفى سنة 1342هـ، محفوظ بالخزانة الملكية برقم (5160).

□ الكتاب السَّادس عشر: «الحُسام المُنْتَضِد المسنون على من قال إن القبض غير مسنون»، تأليف عبد الرحمن بن جعفر الكتاني المتوفى سنة 1334هـ، مطبوع.

□ الكتاب السَّابع عشر: «سلوك السَّبيل الواضح في أن القبض في الصَّلوات كلّها مشهور وراجح، لأبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني المتوفى سنة (1345هـ)»[42].

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربِّ العالمين.

(42) «فهرس الفهارس» للكتاني (517/1).

عبد المالك رمضاني - المدينة النبوية

طريقة السلف الحكماء في النصح للسلاطين والأمراء



بحثي هنا مرتبطٌ بواجبات المحكوم تجاه حاكمه، ومن الأمور المهمَّة الَّتي يجب عليه مَعرفتُها أن يَعرفَ الكيفيَّةَ الَّتي يُعامله بها، ولمَّا كان هذا البابُ واسعًا، فإنَّني أحببتُ أن أُسهِم فيه ببيان موضوعٍ دَقيقٍ منه، ألا وهو الطَّريقةُ الشَّرعيَّةُ في نصيحةِ ذَوي السُّلطان.

وليس المقصودُ من النَّصيحة كلَّ النَّصيحة؛ لأنَّ البحث في ذلك يطول أيضًا؛ إذ يَدخلُ تحتَه بَذلُ البيعة له وطاعتُه في المعروف والدُّعاءُ له وحبُّ اجتماع النَّاس تحت ولايته وتركُ الخُروج عليه وغشِّه وتقديم الكلمة النَّاصحة له سواء بتنبيهه على مواطن الصَّلاح في أعماله أو مواطنِ الإصلاح لأغلاطه.

وهذا البابُ الأخيرُ هو مقصودُ هذه الكتابة، فإنَّ النَّاس يكادون يُجمِعون على أنَّ أكثر الولاياتِ الإسلاميَّة اليومَ قد انحرفت عن كثيرٍ ممَّا يجب أن تكون عليه الولايةُ الشَّرعيَّةُ، لكن اختلفوا في الطُّرق المسلوكة لإصلاح هذا الانحراف:

فمنهم مَنْ يقوم بالتَّشهير بأخطاء رُؤسائه، ويرى أنَّه لابدَّ من توعية النَّاس بذلك حتَّى يتحزَّبوا معه ضدَّهم أوَّلاً ثمَّ يوظِّفهم في عمليَّة الخروج عليهم والانقلاباتِ ضدَّ نظامهم حين يعزِم عليها ثانيًا.

ومنهم مَن يَحرصُ على الاقتراب من رُؤسائه ويستشفع لذلك بالمدح الصَّادقِ لهم والكاذب كي يُصيبَ منهم رُتبًا عليَّةً ومُتعًا شهيَّةً.

ومنهم مَن لا يأبهُ لنُصحهم؛ آيسًا من استجابتهم.

ومنهم مَن ترك مُساكنتهم في بلادهم، آويًا إلى بلاد عدوِّهم، دائبًا على التَّحزُّب ضدَّهم، يُفتِّش عن كلِّ مثلبةٍ لهم صحَّت أو لم تَصحَّ ليَنشرَها في وسائل الإعلام حرصًا على تشويه سُمعتهم، ولو دعاه العدوُّ الكافرُ لخيانة وليِّ أمره لم يتردَّد لشدَّة الحقد السَّاكن في قلبه عليهم.

وقد كان من منكرات أكثر المذكورين إقامةُ سبِّ الحكَّام مقامَ النَّصيحة، واستعاضةُ السَّتر بالفضيحة، واللهُ المستعان.

ولقد انتشر في هذا العصر بين أكثر المسلمين أنَّ قيام خطيبِ الجمعة مثلاً بتتبُّع عثَرات الدَّولة ونقدها أمام الملأ هو خيرُ دليلٍ على أنَّه الخطيبُ الشُّجاعُ المجاهدُ الَّذي تُعقَد عليه آمالُ التَّغيير، وأنَّه الخطيبُ الواقعيُّ الَّذي يعيش أحزانَ أمَّته ويُقاسمُها هُمومَها! فيُقال: حضرت اليوم الجمعة عند إمامٍ يقولُ الحقَّ!! وضابطُه أن يكون ضدَّ الحكَّام!!! كما رسخَ في أذهانِ كثيرٍ منهم أنَّ قيام خطيبِ الجُمعةِ بالتَّركيز على تَعليم النَّاس دينهم من توحيد وطهارة وصلاة وزكاة وصوم وحجٍّ ونحوها هو خيرُ دليل على أنَّه الخطيبُ المغفَّل بل المغيَّبُ عن فقه الواقع؛ لأنَّه يُعدُّ عندهم الخطيبَ العاجزَ عن التَّغيير، وإذا اجتهد في ربط النَّاس باليوم الآخِر فخوَّفهم من يوم القيامة ومن عذاب القبر وشوَّقهم إلى الجنَّة قالوا: إنَّه يَعيشُ تحت الأرض أو فوق السَّماء!! أمَّا ما بينهما فهو عنه غائبٌ!! وأمَّا لو زاد هذا الخطيبُ على ذلك بيانَ حُقوقِ السُّلطانِ المُسلم كما هو مدوَّنٌ في الكتبِ الأصولِ للمتقدِّمين

مسائل منهجية

والمتأخِّرين فهي الخطيئةُ الَّتي لا تُبقي ولا تذر، وصاحبُها على أعتاب الطَّواغيت انتحر!! بل ذلك أكبرُ دَليل عندهم على أنَّه مخدِّرُ شُعوبٍ وذَنَبُ سُلطانٍ ومُجادلٌ عن الطَّواغيت، وتُساءُ به الظُّنونُ حتَّى تُنسجَ حوله بعد ذلك مُباشرةً حكاياتٌ في الموالاة للطَّواغيت والحكَّام القراصنة، والخُنوع للجبابرة وخدمة الفراعنة...!!

هذا هو ما يسمَّى اليَومَ بفقه (الحركة الإسلاميَّة).

وقد مرَّ على الحركة الإسلاميَّة زمنٌ لا يُعرَف عندها الخطيبُ النَّاجحُ والمُحاضرُ البارعُ إلاَّ ذاك الفالي لأخبار الصُّحف الحفَّاظُ لتحرُّكات الملوك والرُّؤساء، حتَّى أكلَ ذلك وقتَ خُطبه، واستَلهمَ جُهودَ دعوته، واستولَى على السَّاحة الدَّعويَّة الخُطبُ (الكَشْكيَّةُ) المحرِّشةُ للشُّعوب على الأمراء، والَّتي لا يكاد يرى أصحابُها أنكرَ من أخطاء الرُّؤساء، حتَّى قلَّد فيها بعضهم بعضًا وغرَّهم في ذلك تصفيقُ الجماهير لهم تارةً وحِلمُ بعض الولاة عليهم تارةً أُخرى، وتحوَّل المسجدُ من بيت عبادةٍ وتربيةٍ وهدايةٍ وسكينةٍ إلى بيت إثارةٍ وتشويشٍ وتحريضٍ للمسلمين بعضهم على بعض، وبتأثيرٍ من هذه الأجواء المهيَّجة ترى مساجدَها أكثرَ طلبًا، وإن كانت أقلَّ تربيةً وأدبًا، بل أعرفُ منهم مَن يَسلكُ هذا المسلك ولا أَرَبَ له في الإثارة السِّياسيَّة سوى أنَّه يريدُ أن يَستجلب من الشَّبيبة الثَّائرة وُدَّها، ويستحلبُ من قيادتها زبدَها، رزقنا الله الثَّباتَ على الحقِّ والإخلاصَ فيه.

❁❁❁

ولا ريب أنَّ الاجتهادَ في النُّصح للأمَّة في الأحوال العصيبة هو نوعٌ من أنواع الجهاد.

وممَّن أُمرنا بإسداء النُّصح له السُّلطانُ الَّذي حكَّمه الله في رقابنا، روى مسلم (55) عن تَميم الدَّاريِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصيحةُ»، قُلنا: لمَن؟ قالَ: «للهِ وَلكتَابه وَلرَسُوله وَلأَئمَّة المُسْلمينَ وَعَامَّتهم»، وروى ابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (21/285) عن السَّائب بن يزيد قال: قال رجلٌ لعُمر بن الخطَّاب: «ألاَّ أَخاف في الله لومة لائم خيرٌ لي أم أُقبلُ على أمري؟ فقال: أمَّا مَن وَليَ من أمر المسلمين شيئًا فلا يَخفْ في الله لومة لائم، ومَن كان خلْوًا فليُقبل على نفسه ولينصح لأميره».

قال ابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصَّلاة» (2/693): «وأمَّا النَّصيحةُ لأئمَّة المسلمين: فحبُّ طاعتهم ورشدهم وعدلهم وحبُّ اجتماع الأمَّة كلِّهم، وكراهية افتراق الأمَّة عليهم، والتَّديُّنُ بطاعتهم في طاعة الله، والبغضُ لمن رأى الخُروج عليهم، وحبُّ إعزازهم في طاعة الله»، ووافقه عليه ابنُ رجب في «جامع العلوم والحكم» (1/80) والنَّووي في «شرحه على مُسلم» (2/38) وحكاه عن الخطَّابي وابن حجَر في «الفتح» (1/138) وغيرهم.

ومن حديث تميم الدَّاري رضي الله عنه السَّابق يُفهم أنَّ طريقة النُّصح للسَّلاطين تختلف عن غيرهم؛ فإنَّ الرَّسول ﷺ فصَّل عند ذكر الأصناف المُستحقَّة للنُّصح، فعطف بين أئمَّة المسلمين وعامَّتهم، والقاعدةُ الَّتي يذكرها العُلماءُ هنا تقولُ: إنَّ عطف الشَّيء على الشَّيء يفيدُ المُغايرة، أي: لمَّا كانت طريقةُ نُصح الأُمراء تختلفُ عن طريقة نُصح عامَّة النَّاس لم يجمعهما ﷺ في كلمة واحدة، وهاك بيانَه:

قال شيخُنا الشَّيخُ عبدُ المُحسن بن حمَد العبَّاد في كتابه الماتع «قطف الجنى الدَّاني شرح مقدِّمة رسالة ابن أبي زَيد القيرواني» (ص173): «ثمَّ إنَّ النَّصيحةَ لولاة الأمور وغيرهم تكون سرًّا وبرفقٍ ولينٍ، ويدلُّ لذلك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لموسى وهارونَ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه]، وعن عائشة رضي الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الرِّفقَ لاَ يكونُ في شيءٍ إلاَّ زانَه، ولاَ يُنْزَع من شيءٍ إلاَّ شَانَه»[1].

وفي «صحيح البخاري» (3267) ومسلم (2989) ـ واللفظُ لمسلم ـ عن أبي وائل شَقيق بن سَلمة قالَ: قيلَ لأُسامةَ: ألاَ تدخُل على عُثمانَ فتُكلِّمَه؟ فقالَ: «أَتُرَوْن أنِّي لاَ أُكلِّمُه إلاَّ أُسمعُكم؟ واللهِ! لقَد كلَّمْتُه فيما بَيني وبينَه مَا دونَ أن أَفتحَ أمرًا لاَ أُحبُّ أن أكونَ أوَّلَ مَن فتَحَه» الحديث.

قال الحافظُ ابنُ حجَر في «الفتح» (13/51): «أي: كلَّمْتُه فيما أَشَرْتم إليه، لكن على سبيل المصلحة والأدب في السِّرِّ بغير أن يكون في كلامي ما يُثيرُ فتنةً أو نحوها».

وعن عياض بن غنم عن رسول الله ﷺ قال: «مَن أَرادَ أَن يَنصَحَ السُّلْطَانَ بأَمْرٍ فلاَ يُبْد له عَلاَنيَةً، ولَكن ليَأْخُذْ بيَده فيَخْلُو به، فإن قَبلَ منه فذاكَ، وإلاَّ كانَ قد أَدَّى الَّذي عليه لَه»[2].

وإذا خلا النُّصحُ من الرِّفق واللِّين وكان علانيةً فإنَّه يضرُّ ولا ينفعُ، ومن المعلُوم أنَّ أيَّ إنسانٍ إذا كان عنده نقصٌ يحبُّ أن يُنصح برفقٍ ولينٍ، وأن يكون ذلك سرًّا، فعليه أن يُعامل النَّاسَ بمثل ما يحبُّ أن يعاملوه به، ففي «صحيح مسلم» (1844) في

(1) رواه مسلم (2594)

(2) رواه أحمد (15333)، والحاكم (3/290)، وابن أبي عاصم في «السنَّة» (1096 ـ 1098)، قال الألبانيُّ في «تخريجه» (2/523): «فالحديثُ صحيحٌ بمجموع طُرقه».

حديث طويل عن عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «فمَن أَحبَّ أن يُزحْزَحَ عن النَّارِ ويُدخَلَ الجنَّةَ فَلْتأته مَنيَّتُه وهو يُؤمنُ بالله واليَوم الآخرِ، وَلْيَأتِ إلى النَّاس الَّذي يُحبُّ أن يُؤتَى إلَيه» اهـ كلامه حفظه الله.

ويؤيِّده قولُ ابن القيِّم رحمه الله في «الطُّرق الحُكميَّة» (ص58): «ومِن دقيق الفطنة أنَّك لا تردُّ على المُطاعِ خطأه بين الملأ؛ فتَحمله رُتبتُه على نُصرة الخطأ، وذلك خطأٌ ثانٍ، ولكن تلطَّف في إعلامه به حيث لا يشعر به غيرُه».



■ وهناك آثارٌ عن السَّلف تؤيِّدُ ما ذكره الشَّيخ . حفظه الله . منها:

□ ما رواه سعيد بن منصُور في «سننه» (846) وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (37307) وابن أبي الدُّنيا في «الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر» (76) وابن المقرئ في «المعجم» (1230) والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» (7592) بإسناد حسنٍ عن سعيد ابن جبير قال: قلتُ لابن عبَّاس: آمرُ أميري بالمعروف وأنهى عن المُنكر؟ فقال: «إن خِفتَ أن يقتلك فلا تُعنِّف السُّلطانَ، فإن كنت لابدَّ فاعلاً ففيما بينك وبينه»، وفي رِواية: «ولا تعبْ إمامَك».

□ وروى البخاريُّ في «التَّاريخ الكبير» (2352) عن أبي جمرةَ قال: «لمَّا بلغني تحريقُ البيت خرجتُ إلى مكَّة واختلفتُ إلى ابن عبَّاس حتَّى عرفني واستأنس بي، فسببتُ الحجَّاجَ عند ابن عبَّاس، فقالَ: «لا تكن عونًا للشَّيطان»، هذا مع ما حصل من الحجَّاج حين رمى ابنَ الزُّبير بالمَنجَنيق فأصاب الكعبة واحترقت.

□ ومنها ما رواه أحمد (19415) . وحسَّنَه الألبانيُّ في «ظلال الجنة» (905) . عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أنَّه قال: «إن كانَ السُّلطانُ يَسمعُ منك فأْتِه في بيته فأخبرْه بما تعلمُ، فإن قبل منك وإلاَّ فدعه...».

□ ومنها عن أنَس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان الأكابرُ من أصحاب رسول الله ﷺ ينهوننا عن سبِّ الأُمراء» رواه ابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (287/21)، وجوَّد الألبانيُّ إسنادَه في «ظلال الجنَّة في تخريج السنَّة لابن أبي عاصم» فقد رواه تحت رقم (1015)، وكذا ابنُ حبَّان في «الثِّقات» (314/5)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (421)، والبيهقي في «الشُّعب» (7507)، وأبو عَمرو الدَّاني في «السُّنن الواردة في الفتن» (141)، وزادُوا في روايتهم عنه رضي الله عنه أنَّه قال: «...أن لا تَسبُّوا أُمراءَكم ولاَ تَعيبُوهم، واتَّقوا الله واصبروا؛ فإنَّ الأمر قَريبٌ»، وفي رواية: «ولا تُغشُّوهم».

وقد نسب أنسٌ هذا الحُكم إلى أكابر الصَّحابة رضي الله عنهم، وحسبُك بهم! فعلام التَّرفُّع عن هدي سادات هذه الأُمَّة لمَن يتشرَّف بالانتسابِ إليهم؟! ومعلومٌ أنَّه ليس ينفع الانتساب إلى السَّلف الصَّالحين إن لم يُصدِّقه العملُ بهديهم، كما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[3].

□ وروى ابن أبي عاصم أيضًا (1016) عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: «إيَّاكم ولعنَ الولاة؛ فإنَّ لعنهم الحالقةُ وبُغضَهم العاقرةُ»، قيل: يا أبا الدَّرداء! فكيف نصنعُ إذا رأينا منهم ما لا نحبُّ؟ قال: «اصبروا؛ فإنَّ الله إذا رأى ذلك منهم حبسهم عنكم بالموت».

□ وعنه قال: «كيف أنتُم إذا لعنتكم أُمراؤُكم علانيةً ولعنتُموهم سرًّا؟! فهنالك تهلكون»[4].

□ وروى الخلاَّل في «السُّنَّة» (546) بسند صحيح أنَّ عبدَ الله ابن عمر رضي الله عنه قال: «جاءني رجلٌ من الأنصار في خلافة عثمان فكلَّمني، فإذا هو يأمرُني في كلامه بأن أعيبَ على عثمان، فتكلَّم كلامًا طويلاً وهو امرؤٌ في لسانه ثقلٌ ولم يكن يقضي كلامه في سَريح، فلمَّا قضى كلامه قلتُ: «إنَّا كنَّا نقول ورسول الله ﷺ حيٌّ: أفضلُ أمَّة رسول الله بعده أبو بكر ثمَّ عمر ثمَّ عثمان، وإنَّا . والله! . ما نعلمُ عثمانَ قتل نفسًا بغيرِ حقٍّ ولا جاء من الكبائر شيئًا، ولكن هو هذا المالُ، فإن أعطاكُموه رضيتم، وإن أعطاه

(3) رواه مسلم (2699).
(4) رواه معمر في «جامعه بذيل مصنَّف عبد الرَّزَّاق» (344/11).

أولي قرابته سخطتُم، إنَّما تريدون أن تكونوا كفارس والرُّوم لا يتركُون لهم أميرًا إلاَّ قتلوه»، قال: «ففاضَت عيناه بأربع من الدَّمع، ثمَّ قال: اللَّهمَّ لا نُريدُ ذلك».

□ وروى ابن أبي الدُّنيا في «الصَّمت» (235) وأبو القاسم البغوي في «مسند ابن الجعد» (827) وأبو نعيم (41/5) عن زائدةَ بن قُدامةَ قالَ: قلتُ لمنصُور بن المُعتمر: «اليوم الَّذي أصوم فيه أقعُ في الأمراء؟ قال: «لا!» قلتُ: فأقع فيمن يتناول أبا بكر وعمر؟ قال: «نعم!».

وذلك لأنَّ الطَّعن على مَن يسبُّ الصَّحابة دينٌ، وأمَّا الطَّعنُ على الأُمراء فقد مرَّ أنَّه ليس من الدِّين، وتفسيرُه أنَّ غالبَ الواقعين في أعراض حكَّامهم فإنَّ باعثهم عليه الدُّنيا، كما في أثر ابن عمر السَّابق، حتَّى الخوارج الَّذين ظاهرُهم الغضبُ من أجل الدِّين، فيكونُ هذا من قبيل عدم الصَّبر على الشَّهوات، وأمَّا تناولُ الرَّافضة أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بالطَّعن فإنَّه من قبيل الشُّبهات، ومعلومٌ أنَّ فتنة الشُّبهات أشدُّ من فتنة الشَّهوات كما هو مأثورٌ عن السَّلف، والحركيُّون عكسوا هذا من أصله، نسأل الله أن يقيَنا شرَّ الشُّبهات والشَّهوات جميعًا.

□ وروى أبو نعيم (271/2) والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (6681) عن سُهيل القُطَعي قال: سمع ابنُ سيرين رجُلاً يسبُّ الحجَّاج، فقال: «مَهْ أيُّها الرَّجلُ! إنَّك لو وافَيتَ الآخرةَ كان أصغر ذنب عملتَه قطُّ أعظم عليك من أعظم ذنب عمله الحجَّاجُ[5]، واعلم أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حكمٌ عَدلٌ؛ إن أخذ من الحجَّاج لمن ظَلَمه شيئًا فشيئًا أخذ للحجَّاج ممَّن ظلمه، فلا تشغلنَّ نفسك بسبِّ أحد».

وهَذا على معنى أنَّ الحجَّاج لو أُخذ من حسناته لمن ظلمه فسيسترجعها ممَّن يسبُّه أضعافًا مُضاعفةً؛ لأنَّه جرَت العادة أنَّ المتكلِّمين في الحكَّام كثيرٌ جدًّا، ويُوضِّحُه ما رواه البلاذري في تَرجمة عُمر بن عبد العزيز رحمه الله من كتاب «أنساب الأشراف» عن السَّائب الكَلبي قالَ: «كتب عمر إلى عبد الحميد ابن عبد الرَّحمن ابن زيد بن الخطَّاب عامله على الكوفة: أمَّا بعد، فقد بلغني أنَّ من قِبَلَكَ يَسبُّون الحجَّاجَ، فَانههم عن ذلك؛ فإنَّه بلغني أنَّ المظلوم يدعو على الظَّالم، فيكون المظلومُ ظالماً والظَّالمُ مظلومًا» أي: يصبح المَظلوم ظالمًا بسبب تجاوزه حدَّه في الانتصار، كما روى ابن المبارك في «الزُّهد» (681) وعنه أبو نعيم في «الحلية» (277/5) بإسناد حسنٍ عن رياح بن عَبيدة قال: «كنتُ قاعدًا عند عُمرَ بن عبد العزيز، فذكر الحجَّاجَ فشتمتُه ووقعتُ فيه، فقال عُمرُ: مهلاً يا رِيَاح! إنَّه بلغني أنَّ الرَّجل يظلمُ بالمظلمة فلا يزالُ المظلومُ يشتمُ الظَّالم وينتقصه حتَّى يستوفي حقَّه ويكون للظَّالم الفضلُ عليه»، وبمثل هذا يظلُّ النَّاسُ يجودون بحسناتهم على ملوكهم المبغضين لديهم وهم لا يشعرون، ولذلك روى معمر في «جامعه» كما في «ذيل مصنَّف عبد الرَّزاق» (180/11) عن قتادة قال: «سبَّ الحجَّاج بن يوسف رجلٌ عند عمر بن عبد العزيز، فقال عمر: أظلمك بشيءٍ؟ قال: نعم! ظلمني بكذا وكذا، قال عمر: فهلاَّ تركتَ مظلمتَك حتَّى تقدمَ عليها يوم القيامة وهي وافرةٌ؟!».

□ روى ابن زنجويه في «الأموال» (78/1) بإسناد صحيح عن أبي مِجْلز قال: «سبُّ الإمام الحالقةُ، لا أقولُ: حالقةُ الشَّعر، ولَكن حالقة الدِّين».

□ وفيه أيضًا (80/1) بإسناد صحيح عن أبي إدريس الخَوْلاني أنَّه كان يقولُ وهو يقصُّ في زمان عبد الملك: «إيَّاكُم والطَّعنَ على الأئمَّة؛ فإنَّ الطَّعن عليهم هي الحالقة، حالقة الدِّين ليس حالقةَ الشَّعر، ألا إنَّ الطَّعَّانينَ هُم الخائبون وشرارُ الأشرار».

□ وأخرج أبو عمرو الدَّاني في «السُّنن الواردة في الفتن» (146) وابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (287/21) وفي «الاستذكار» (579/8) عن أبي إسحاق السَّبيعي رحمه الله أنَّه قال: «ما سبَّ قومٌ أميرَهم إلاَّ حرموا خيره».

ما أصدقَ هذا الكلام على واقع البلدان في كلِّ زمان! وكلَّما توهَّم المحاضرون السَّبَّابون للحكَّام أنَّهم وصلوا بالنَّاس إلى التَّوعية السِّياسيَّة المطلوبة والتَّشريح الواقعيِّ لأحوال الدُّول ازداد الأمرُ تفاقمًا والفتنةُ تعاظمًا، والله المستعان.

□ وروى ابن أبي حاتم في «الجرح والتَّعديل» (97/1) بسند صحيح عن عبد الرَّحمن بن مهدي قال: «ما سمعتُ سُفيان ـ أي: الثَّوري ـ يسبُّ أحدًا من السُّلطان قطُّ في شدَّته عليهم».

وكان شديدًا عليهم؛ لأنَّه لم يكن يقبل جوائزَهم كما هو مدوَّنٌ في سيرته من المصدر المذكور آنفًا، وكذلك لم يكن يجاملُهم إذا مثل بين أيديهم، بل يخبرهم بما فيهم نصحًا وإخلاصًا وحبًّا في إصابتهم الخيرَ وسلامتهم من الشَّرِّ.

كما روى أيضًا بالسَّند نفسه عن عبد الرَّحمن بن مهدي

(5) يُريدُ منه أن يَشتغلَ بذُنوبِه بدلاً من الاشتغال بذُنوب الحَجَّاج؛ فإنَّ الإنسانَ إذَا جاءَ يومَ القيامة استَعظمَ كلَّ ذنب عملَه مَهْمَا صَغُرَ؛ إذ لاَ يُهمُّه إلاَّ شأنُه، لاَ كحاله في الدُّنيَا إذ يُعميه تعلُّقُه بها عنْ مُحاسبةِ نَفسِه وينطلقُ لمُحاسبةِ أمرائه.

قال: سمعتُ سُفيان يقولُ: «إنِّي لأدعُو للسُّلطان يعني بالصَّلاح، ولكن لا أستطيع أن أذكر إلاَّ ما فيهم».

أي: إنَّه إذا مثل بين أيديهم لا يغرُّهم بالمدح الكاذب، بل يُبيِّن لهم نقائصَهم كما هي حتَّى يتجنَّبوها، لا تشفِّيًا كما يفعل المبتلون بمطاردة أحوال السَّلاطين بإحصاء أخطائهم ونشرها على منابرهم؛ فإنَّ المجرَّبَ عليهم أنَّهم أجبنُ النَّاس عند لقائهم، وكثيرًا ما يحصل أنَّ السُّلطان الذَّكيَّ يمتحنهم بشيءٍ من الدُّنيا وأنواع الإكرام ليستدرَّ منهم الثَّناء عليه، فيحصلُ ذلك منهم بدون أدنى تردُّد.

فكيف بمن لا ينصح إلاَّ من وراء جُدُرٍ؟! إنَّ أكثر الثَّرثارين بالمسائل السِّياسيَّة المعاصرة للطَّعن بها على الحكَّام هم من هذا الطِّراز الجبان، ولذلك فإنَّ أهل المكر من العلمانيِّين لا يجدون تعبًا يُذكر في تذويبهم وصناعتهم على عينهم، وقد عرف النَّاسُ كثيرًا منهم قد غيَّر سياستَه في معاملة أميره لمجرَّد رفع مرتبةٍ أو زيادة راتبٍ أو تمكينهم من ذُيوع صيتهم عند العامَّة وتسميع حالهم في وسائل الإعلام، فهنالك تبردُ حميَّته، وتتكسرُ همَّتُه!!

فالنَّصيحة لمن كان قليلَ الثَّبات ضعيفَ الشَّخصيَّة، سريعَ التَّلوُّن والتَّقيَّة أن يتنحَّى عن هذه السَّبيل، ومن كان غير ذلك فليَتَعلَّم الهديَ النَّبويَّ الإصلاحيَّ وليُحسن التَّأسِّي.

والخلاصةُ: أنَّ هؤلاء جمعٌ من أهل العلم من سلفنا الصَّالح قد تناقلوا هذه الطَّريقةَ النَّبويَّةَ الحكيمةَ في التَّعامل مع ولاتهم دون أن يجدُوا في أنفسهم حرجًا منها، وهذه هي الشَّجاعةُ الحقَّةُ والنُّصحُ الصَّادقُ، وهو أن يكون المرءُ صائمًا عن أعراض الولاة، بل داعيًا لهم بظَهر الغيب، فإذَا حان وقتُ نصيحة لهم لم يَضعُفْ عنها؛ كما قال عُبادة بن الصَّامت ﷺ: «بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمع والطَّاعة في العسر واليسر والمنشط والمكرَه، وعلى أثَرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهلَه، وعلى أن نقول بالحقِّ أينما كنَّا لا نخاف في الله لومة لائم»[6].

وإذا قوِي على قول الحقِّ لم يَضعُفْ عن التزام الأسلوب الحكيم الَّذي دلَّت عليه الآثار الَّتي مرَّت، ومَن كان في انتقادهم على المنابر أسدًا؛ لأنَّه بعيدٌ عنهم ومُستترٌ بالجماهير، ربَّما تحوَّل إلى نعامة عند اللِّقاء بمَن ينتقدُ من الملوك والأمراء، كما هو غالبُ حالِ هؤلاء الَّذين يُخالفون الآثارَ السَّابقةَ بنوع فلسفة، فأين الاقتداء بالسَّلف؟! وأين الجهاد المزعومُ؟! بل هو عند ذوي أطبَّاء الآثام الباطنة بمنزلة من يُقاتلُ حميَّةً ورياءً!

(6) رواه البخاري (7200) ومسلم (1709)

إذن، هذه هي الطَّريقة الشَّرعيَّة الَّتي دلَّت عليها الأدلَّة، وجرى عليها عملُ الأجلَّة، فتمسَّك بها وعضَّ عليها بالنَّواجذ، يجعل الله في نصحك بهذه الطَّريقة النَّبويَّة الهداية لسلطانك والإصلاحَ لمجتمعك ويُعْظِم لك أجرَك، ولا يحملنَّك كثرةُ انحراف من ترى على سلوك طرائق المتهوِّرين والمتعجِّلين، كما نقل الشَّاطبيُّ في «الاعتصام» (83/1) عن الفُضَيل بن عياض أنَّه قال: «اتَّبع طرُقَ الهدَى ولا يضرُّك قلَّةُ السَّالكين، وإيَّاك وطُرقَ الضَّلالة ولا تغترَّ بكثرة الهالكين».

والحقيقة أنَّ الله هو الَّذي يولِّي على النَّاس مَن شاء من السَّلاطين بحكمته وعدله؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]، وذلك بحسب أحوال النَّاس صلاحًا وفسادًا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129]، فإن كانوا صالحين ولَّى عليهم الصَّالحين، وإن كانوا غيرَ ذلك ولَّى عليهم مَن يناسبهم تحت القاعدة الَّتي اجتمعت عليها كلمةُ الحكماء منذ زمنٍ قديم، وأكَّدها قديمًا وحديثًا الفقهاءُ، ألا وهي قولهم: «كما تكونوا يولَّى عليكم»، وقد أسهبتُ في بيان ذلك بأدلَّته الكثيرة في رسالة بعنوانِ القاعدة المذكورة فليرجع إليها من شاء، فإذا كان الله يولِّي الحكَّامَ على هذا الأساس فمن الطَّعن في أمر الله أن يدأبَ طالبو الإصلاح على الطَّعن على السَّلاطين ويركِّزوا عليه عملهم ولمَّا يُصلحوا أنفسهم بعدُ ولا من يلُون، تلك الأنفس الَّتي هي المتسبِّبُ الأوَّلُ في وجود سلاطين غير صالحين، ولذلك فإنَّ الموفَّقين يرجعون إلى أنفسهم بالتُّهمة والطَّعن ثمَّ بالتَّغيير من جهتها ليُغيِّر الله أحوال حكَّامهم، ليس استسلامًا للواقع ولكن تسليمًا لحكم الله تعالى الَّذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: 11]، ولذلك روى عبد الملك بنُ حبيب في كتاب «أدب النِّساء» (ص187) عن يونس بن عُبيد قال: «صحبتُ الحسنَ البصريَّ ثلاثين سنةً، فما سمعتُه قطُّ قال: عُزل أميرٌ ولا وُلِّي، ولا غلا سعرٌ ولا رخصَ سعرٌ، ولا اشتدَّ حرٌّ، وما كان ذكره إلاَّ: الموتُ جاءكم!...»، هذا عكس ما عليه الحركيُّون تمامًا، وعلى هذا الأساس يَفهمُ القارئُ سببَ كون السَّلف كانوا يكرهون الاشتغال بسبِّ الحكَّام كما مرَّ، والله المستعان!



مقاصد الدعوة إلى الله تعالى عند أهل السنة والجماعة

زيدان بريكة

إمام أستاذ. فرجيوة. ولاية ميلة

إنَّ أهل السُّنة والجماعة في دعوتهم كلِّها ـ قديمًا وحديثًا ـ منضبطون بقواعدَ معلومة؛ ففهم كتاب الله تعالى عندهم منضبط بفَهم السَّلف، وفهم السُّنة منضبط بفهم السَّلف، وكذلك علوم اللُّغة والأصول والمصطلَح والفقه، وعلم المقاصد أيضًا منضبط بفهم السَّلف.

وليُؤسَّس هذا البحث على استقراء نصوص الشَّرع وكلام أهل العلم على سبيل الإيجاز والإيماء.

مقاصد دعوة أهل السُّنة والجماعة:

قال يحي بن معاذ الرَّازي (258 هـ): «اختلاف النَّاس كلِّهم يرجع إلى ثلاثة أصول، فلكلِّ واحدٍ منها ضدٌّ، فمن سقط عنه وقع في ضدِّه:

أ ـ التَّوحيد، وضدُّه الشِّرك.

ب ـ والسُّنة، وضدُّها البدعة.

جـ ـ والطَّاعة، وضدُّها المعصية»[1].

وقرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنَّ الجهل بمقاصد الدَّعوة هو السَّبب الأعظم لانحراف الطَّوائف والفرق؛ قال رحمه الله:

«الوجه الثَّاني: في مفارَقة الطَّريقة القرآنية الكلاميَّة: إنَّ الله أمر بعبادته الَّتي هي كمال النُّفوس وصلاحُها، وغايتُها ونهايتُها، لم يقتصر على مجرَّد الإقرار به، كما هو غاية الطَّريقة الكلاميَّة، فلا وافَقوا لا في الوسائل، ولا في المقاصد»[2].

❁❁❁

(1) «الاعتصام» (151/1).

(2) «مجموع الفتاوى» (14/2).

أوَّلاً:

بيان المقصد الأوَّل ـ وهو تحقيق التَّوحيد المنافي للشِّرك

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكان المقصود بالدَّعوة وصولَ العباد إلى ما خُلقوا له، من عبادة ربِّهم وحده لا شريك له»[3].

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «فالمقصود معرفةُ الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة ما ينبَغي لجلاله، وما يتعالَى ويتقدَّس عنه»[4].

فهذا نصٌّ صريحٌ من شيخ الإسلام الثَّاني، والعالم الربَّاني ابن القيِّم رحمه الله على أنَّ المقصد الأوَّل والأعظَم لدعوة أهل السُّنة هو تحقيق توحيد الله تعالى، ونفي الشَّريك عنه في ربوبيَّته وألوهيَّته وأسمائه وصفاته، وإنَّما تصدر هذه الحكم عنه رحمه الله لكمال رُسوخ قدَمه في علوم الشَّريعة، وتمام معرفته بالأصول السَّلفية.

الأدلَّة من كتاب الله على ذلك:

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ [سورة النحل].

□ وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [سورة البقرة].

□ وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)﴾ [سورة المؤمنون].

□ وقال أيضًا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣)﴾ [سورة قريش].

□ وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)﴾ [سورة النمل].

(3) «مجموع الفتاوى» (10/2).

(4) «مفتاح دار السعادة» (1159/2).

■ الأدلة من السُّنَّة أيضًا:

قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ...»[5] الحديث.

وقال لمعاذ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فادعهم إلى شهادة أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه»[6].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنما نبَّهنا هنا على رؤوس المسائل، وجنس الدَّلائل، والتَّنبيه على مقاصد الشَّريعة وما فيها من إخلاص الدِّين لله وعبادته وحده لا شريك له، وما سدَّته من الذَّريعة إلى الشِّرك دقِّه وجلِّه، فإنَّ هذا هو أصلُ الدِّين، وحقيقَة دين المرسلين،وتوحيد ربِّ العالمين»[7].

وقال ابن القيِّم: «ومِلاك النَّجاة والسَّعادة والفوز بتحقيق التَّوحيدين اللّذين عليهما مدار كتاب الله تعالى، وبتحقيقهما بعث الله - سبحانه وتعالى - رسولَه ﷺ، وإليهما رغّب الرُّسلُ - صلواتُ الله وسلامُه عليهم كلهم - من أوَّلهم إلى آخرهم»[8].

(5) البخاري (25)، ومسلم (22) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(6) البخاري (1458) و مسلم (19).
(7) «الاقتضاء» (ص 459 دار المعرفة - حامد الفقي).
(8) «اجتماع الجيوش» (ص 84).



ثانيًا:

بيان المقصد الثَّاني وهو تحقيق السُّنة المنافي للبِدعة

■ معنى السُّنة في الاصطلاح:

يقول الحافظ الكبير ابن رجب رحمه الله: «والسُّنة هي الطَّريقة المسلوكة؛ فيشمَل ذلك التمسُّك بما كان عليه هو (أي: النَّبيّ ﷺ) وخلفاؤُه الرَّاشدون من:

أ - الاعتقادات

ب - والأعمال

جـ - والأقوال

وهذه هي السُّنة الكاملة، ولهذا كان السَّلف قديمًا لا يطلقون السُّنة إلاَّ على ما يشمل ذلك كلَّه، روي معنى ذلك عن الحسن والأوزاعي والفضيل بن عياض»[9].

وتحقيقُ السنّة يكون بامتثالها والعمل بها واعتقادها، ومحبَّة أهلها، وتولّي من ينصرُها، وتعليمها لمن لا يعلَمها.

■ فصل: حرص السَّلف على امتثال السُّنة:

□ أخرج أبو داود (4607) عن النبيِّ ﷺ قال: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ؛ تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ»[10].

□ ولمَّا بلغ عليًّا رضي الله عنه أنَّ عثمان رضي الله عنه ينهى عن مُتعة الحجِّ أهلَّ عليٌّ بالحجِّ والعُمرة جميعًا، وقال: «لا أدَعُ سنَّة رسولِ الله ﷺ لقَول أحدٍ من النَّاس»[11].

□ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يُوشك أن تنزل عليكم حجارةٌ من السَّماء؛ أقول: قالَ رسولُ الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكرٍ وعُمر!»[12].

□ قال الإمام البخاري في «صحيحه»: «كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة»، ثمَّ أخرج عن عبد الله بن عمر أنَّه كتَب إلى عبد الملك بن مَروان يُبايعه؛ فقال: «وأُقرُّ لك بالسَّمع والطَّاعة على سُنَّة الله وسُنَّة رسوله فيما استَطعتُ».

■ سيِّد المعلِّمين يشرح السُّنة بالخطِّ المستقيم:

□ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خطَّ لنا رسولُ

(9) «جامع العلوم والحكم» (ص 434 .ط.دار الفجر للتراث، القاهرة).
(10) أبو داود (4607) و«صحيح الجامع» (2549).
(11) البخاري (1563)، وانظر: «وجوب العمل بالسنة» لابن باز رحمه الله (ص 14).
(12) نفس المصدر (ص 14).

اللهِ ﷺ خطًا، وخطَّ عن يمينه وعن يساره، فقال هذا سبيلُ اللهِ، ثمَّ خطَّ لنا خطوطًا عن يمينه ويساره، وقال: هذه سُبلٌ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعُو إليه، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153][13].

□ قال بكر بن العلاء: «أحسبه أرادَ شيطانًا من الإنس، وهي البدع، والله أعلم»[14].

■ **نفي البدعة:**

لقد استفاضَ تحذيرُ السَّلف رضي الله عنهم من أهل البدع والأهواء، انتصارًا لدين الله، وحمايةً لجَناب الشَّريعة، وجهادًا لإعداد الرِّسالة، وهذه أقوالُهم؛ هل تجد فيها غيرَ النَّصيحة؟

□ روى الإمام البخاري في كتاب «خلق أفعال العباد» عن عبد الله بن المبارك المتوفى سنة (181 هـ) قوله: «إنَّا نستطيع أن نحكي كلامَ اليهود والنَّصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلامَ الجَهميَّة».

فقال الدَّارمي الإمام: «صدَق ابنُ المبارَك؛ إنَّ من كلامهم في تعطيل صفات الله تعالى ما هو أوحَش من كلام اليهود والنَّصارى»[15].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وعامَّة ما يوجد النِّفاق في أهل البدع؛ فإنَّ الَّذي ابتدع الرَّفض كان منافقًا زنديقًا، وكذلك يقال عن الَّذي ابتدع التَّجهُّم، وكذلك رؤوس القَرامطة والخرمية وأمثالُهم لا ريبَ أنَّهم من أعظَم المنافقين»[16].

ويقول أيضًا: «هذا مع العلم بأنَّ كثيرًا من المبتدعة منافقون النِّفاقَ الأكبر»[17].

■ **أهمِّية ردِّ البدعة عند السَّلف رضي الله عنهم:**

هذا المقام يدلُّ على فقه السَّلف، وكمال دينهم، وما عندهم من مراقبة لله تعالى، على عكس ما يظنُّه غير الموفَّقين الَّذين سجَنتهُم الشُّبهات بظلامها، وغرَّتهم الشَّهوات بسرابها.

□ قال الإمام الكبير يحيى بن يحيى رحمه الله (226هـ): «الذَّب عن السُّنة أفضلُ من الجهاد في سبيل الله». فقال له محمد بن يحيى الذُّهلي: «الرَّجل يُنفق مالَه، ويتعب نفسَه، ويجاهد، فهذا أفضل منه؟ قال يحي: نعم بكثير»[18].

□ وقال العلَم الشَّامخ والطَّود الرَّاسخ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «...ومثل أئمَّة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسُّنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسُّنة فإنَّ بيانَ حالهم وتحذيرَ الأمَّة منهم واجبٌ باتِّفاق المسلمين»[19]، فارفَع رأسًا بهذا تكُن من الموفَّقين، وحسبُك الله في كلِّ الأحوال.

■ **أمُّ المؤمنين أمُّ سلَمة تنهَى عن بدعة التَّحزُّب:**

عن الحسن: قال: خرَج علينا عثمانُ بن عفَّان رضي الله عنه يومًا يخطُبنا، فقطَعوا عليه كلامَه، فترامَوا بالبَطحاء، حتَّى جعلتُ ما أبصر أديمَ السَّماء. قال: وسمعنا صوتًا من بعض حُجَر أزواج النبيِّ ﷺ، فقيل: هذا صوتُ أمِّ المؤمنين. قال: فسمعتُها وهي تَقول: ألا إنَّ نبيَّكم قد برئ ممَّن فرَّق دينَه واحتَزب ـ تعني تحزَّب ـ، وتلَت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 159][20].

■ **تصرُّف أهل السُّنة بالتَّأليف في نفي البدع:**

فممَّن ردَّ على الجهميَّة في ضمن مؤلَّفاته الإمام مالك ابن أنس في كتابه «الموطأ»، وقد نقل عنه الإمام ابنُ تيمية فائدةً عزيزةً في بيان سبَب تأليفه لـ«الموطأ»:

«وقد قيل: إنَّ مالكًا إنَّما صنَّف «الموطَّأ» تبعًا لهُ (أي: لحمَّاد ابن سلمة)، وقال: «جمعت هذا خوفًا من الجهميَّة أن يُضلُّوا النَّاس، لمَّا ابتدعَتْ الجهْميَّةُ النَّفي والتَّعْطيلَ حتَّى إنَّهُ لَمَّا صُنِّفَ الكتب الجامعةُ، صنَّف العلماء فيها كما صنَّف نُعيم بن حمَّاد الخزاعي شيخ البخاري كتابه في الصِّفَات والرَّدِّ على الجهميَّة، وصنَّف عبد الله بن محمَّد الجُعْفي شيخ البخاريِّ كتابه في الصِّفات والرَّدِّ على الجهميَّة، وصنَّف عثمان بن سعيد الدَّارمي كتابه في الصِّفات والرَّدِّ على الجهميَّة، وكتابه في النَّقض على المريسي وصنَّف الإمام أحمد رسالته في إثبات الصِّفات والرَّدِّ على الجهميَّة، وأملى في أبواب ذلك حتَّى جمع كلامه أبو بكر الخلال في كتاب السُّنَّة وصنَّف عبد العزيز الكناني صاحب الشَّافعي كتابه في الرَّدِّ على الجهميَّة، وصنَّف كتبَ السُّنَّة في الصِّفات طوائف مثل عبد الله بن أحمد، وحنبل ابن إسحاق، وأبي بكر الأثرم، وخشيش بن أصرم شيخ أبي داود، ومحمَّد بن إسحاق بن خزيمة، وأبي بكر بن أبي عاصم، والحكم ابن معبد

(13) أحمد (4142) والنسائي في «الكبرى» (11174) والحاكم (3241).
(14) «الاعتصام» (77/1).
(15) نفس المرجع السابق (ص 57).
(16) «بغية المرتاد» (341/1).
(17) قارن بـ«الردّ على الجهمية» (31) و«مجموعة الرسائل» (15/3)، و«مجموع الفتاوى» (497/12).
(18) «ذم الكلام» للهروي (242).
(19) «مجموع الفتاوى» (231/28).
(20) الاعتصام.



الخزاعي ولأبي بكر الخلال، وأبي القاسم الطَّبراني، وأبي الشَّيخ الأصبهـاني، وأبي أحمد العسَّال وأبي بكـر الآجرِّي وأبي الحسن الدَّارقطنـي، كتـاب الصِّفات وكتـاب الرُّؤية؛ وأبـي عبد الله بن منْدَه، وأبـي عبد الله ابن بطَّة، وأبي قاسم اللالكائي، وأبي عمرَ الطَّلَمَنْكي، وغيرهم، وأيضًـا فقد جمع العلماء من أهل الحديث والفقـه والكلام والتَّصـوُّف هذه الآيات والأحاديـث، وتكلَّموا في إثبات معانيهـا، وتقرير صفات الله دلَّتْ عليهـا هذه النُّصوص، لَمَّـا ابتدعت الجهميَّة جحد ذلك والتَّكذيب له...»[21] وإلى وقتِنا هذا مازال هذا هو دينهم.

ومن ذلك، ما ألَّفه شيخ الإسلام «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، والشَّاطبي «الاعتصام».

□ قـال عمر بـن عبد العزيـز: «ألا وإنِّي أعالِج أمـرًا لا يُعين عليـه إلا الله، قد فنِيَ عليه الكبير، وكبر عليـه الصَّغير، وفصُحَ عليـه الأعجمي، وهاجَر عليه الأعرابيُّ، حتَّى حسِبوه دينًا لا يرَون الحقَّ غيرَه»[22].

نعم؛ هذا الَّذي قضَّ مضاجِع أهل السُّنة دفعُ البِدعة ودحرُها، وإماتتُها وقهرُها وردُّها، والدَّفع في صدور أنصارِها.



(21) الفتاوى الكبرى (336/6).
(22) «الاعتصام» (ص 1 /20. ط.الأثرية).

ثالثا:

بيان المقصد الثَّالث وهو: تحقيق المتابَعة المنافية لتقليد غيره ﷺ

قـال الأصبهـاني (535هـ): «الاتباع عنـد العلماء هو الأخذ بسـنن رسـول الله ﷺ التـي صحـت عنـه عنـد أهلهـا ونقلتها وحفاظهـا، والخضوع لها، والتسليم لأمر النبي ﷺ فيها تقليداً لمـن أمـر الله بتقليده والائتمـار بأمره، والانتهـاء عما نهى الله عنه...»[23].

■ **والمتابَعـة:** هـي قِسمٌ مـن أقسام التَّوحيـد المتعلِّق بشهادَة (أنَّ محمَّدًا رسولُ الله).

قال الشَّيخ الوصابي: «توحيد المتابَعة هو: أن نُفرد رسولَ الله ﷺ في الاتِّبـاع، فلا نتَّبـع إلاَّ إيَّاه اتِّباعًا مطلَقًـا، أمَّا غيرُه فيتَّبع اتِّباعًا مقيَّدًا بما يوافق الشَّرع.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة آل عمران].

وقال تعـالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحشر].

وقـال تعـالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [سورة النساء]».

ثمَّ قال الوصابي: «وهذا معنى (أشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله)».

■ **معنى نفي التقليد:**

قال الأصبهاني (535هـ): « قالوا إن التقليد إنما هو: قبول قـول الغير من غير حجة. وأهل السنة إنما تبعوا قول رسول الله ﷺ وقوله : نفس الحجة »[24].

فالتَّقليد اصطلاحًا هو: قبول قولِ العالم من غير دليل.

وقد يكُون في المعتَقدات وهو أخطرُها وأشدُّها على العباد، وبه ضلَّ مَن ضـلَّ من اليهود والنَّصارى والمجوس وخَلقٍ لا يُحصَون من طوائف المبتدعة.

وقـد يكـون في جِهة الأعمال.وهو أخفُّ مـن الأوَّل.، وقد كان سببًـا في اندراس كثـير مـن علـوم الشَّريعة من جهـة الفقه في الدَّليـل، حتَّى كاد بعضُهم أن يحـرِّم النَّظر في الدَّليل مطلَقًا كما حكَت صفحاتُ التَّاريخ!

(23) «الحجة في بيان المحجة» (247/2).
(24) «الحجة في بيان المحجة» (119/2).

لهـذا كلِّه وقَف أهـلُ السُّنة الموقف الشَّامـخ العادل، وناضَلوا عن شريعة الإسلام النِّضال العظيم الباسِل، فأزاحوا عن الدين المستقيم الشَّطَط والباطل.

قال ابن القيم ـ رحمه الله رحمةً واسعةً ـ:

«ثـمَّ سـار علـى آثارهم الرَّعيـل الأوَّل مـن أتباعهـم، ودرَج علـى منهاجهـم الموفَّقون مـن أشياعهم زاهديـن في التَّعصُّب للرِّجـال، واقفين مـع الحجَّة والاستدلال، يسـيرون مع الحقِّ أين سـارَت ركائبُـه، ويستقلُّون مع الصَّواب حيـث استقلَّت مضاربُه، إذا بـدا لهـم الدَّليل بأَخذَته طـاروا إليه زُرافـات ووُحدانًا، وإذا دعاهُم الرَّسول إلى أمر انتَدبوا إليه ولا يسألونَه عمَّا قال برهانًا، ونصوصُـه أجلُّ في صدورهم وأعظَـم في نفوسهم من أن يقدِّموا عليها قولَ أحد من النَّاس، أو يعارضوها برأي أو قياس.

ثـمَّ خلَفَ من بعدهـم خُلوفٌ فرَّقـوا دينَهم وكانـوا شيَعًا كلُّ حـزب بما لديهـم فرِحُـون، وتقطَّعوا أمرَهـم بينهم زبُـرًا، وكلٌّ إلى ربِّهـم راجِعـون، جعلوا التَّعصُّب للمذاهـب ديانتَهم الَّتي بها يدِينُـون، ورؤوسَ أموالِهم الَّتي بها يتَّجرون، وآخرون منهم قنَعوا بمحض التَّقليد، وقالـوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف : 22]»[25].

فانظـر ـ رحمـك الله ـ إلى صَولة هذا الإمـام الهُمام، ثمَّ كُن عادلاً منصفًا؛ فإنَّ ذلك يُذهب عنك درن التَّقليد وأوزاره.

ثـمَّ عقـد ابـن القيم رحمه الله بابًـا في نهـي الصَّحابـة في تقليد الرِّجـال، وفيه ذكَر عن عبد الله بن المعتمـر: «لا فرقَ بين بهيمةٍ تنقادُ وإنسان يقلِّد».

وبابًـا آخـر في نهي الأئمَّـة الأربعة عن تقليدهـم، قال: «قال المُـزَني في أوَّل «مختصـره»: اختصَـرتُ هذا من علـم الشَّافعي، ومـن معنـى قوله، لأقرِّبـه على مَـن أراده مع إعلاميَّـة نهيه عن تقليده وتقليد غيره».

وقال ابن القيم: «قال بشر بن الوَليد: قال أبو يوسف: لا يحلُّ لأحد أن يقولَ مقالتَنا حتَّى يعلم من أين قُلنا»[26].

قـال الحسـن البصري وغيرُه مـن السَّلف: «زعم قـومٌ أنَّهم يحبُّـون الله فابتلاهُـم بهذه الآيـة فقـال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : 31]»[27].

وقـال شيـخ الإسلام: «والله تعـالى قد جعـلَ محبَّته موجبةً لاتِّبـاع رسوله، فقال تعـالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، ...فـكلُّ مـن ادَّعـى أنَّه يحـبُّ الله ولم يتَّبـع الرَّسولَ فقد كذَب»[28].

وقـال الإمام الألباني رحمه الله: «إنَّه لا يمكـن لأحد أن يرقَى إلى هذه المنزلة من الحبِّ لله ورسوله إلاَّ بتوحيد الله تعالى في عبادَته دون سـواه، وبإفراد النبـيِّ ﷺ بالاتِّباع دون غيره من عباد الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : 80]»[29].

وهـذا المعنى لمن أراده مبسوطٌ بتوسُّع في اعتصام الشَّاطبي، وكتـب ابن تيميَّة، وابـن القيِّـم، ورسائل المشايـخ والعُلماء؛ مثل الشَّيخ ابن بـاز، والألباني، وابن عثيمين رحمهـم الله، والفَوزان والشَّيخ ربيع حفظهما الله، بما لا يحيط به حصرٌ.

وعذري في التَّقصير ضعفُ الوسيلة، وخُفوت القرحة، وتقدُّم الأقـران، وقوَّة ما عندهم من الـزَّاد، فأنا بهم مقتدي، ووراءَهم مقتفي، ولسان الحال يقول:

لقد مَضيتُ وراءَ الرَّكب ذا عَرجٍ
مؤمِّـلا جَـبـرَ مــا لاقَيتُ من عرجِ
فإن لحِقتُ بهم من بعد ما سبَقوا
فكَم لربِّ الورَى في النَّاس من فَرجِ
وإن ضَللتُ بقَفر الأرض منقطعًا
فما على أعرَجٍ في النَّاس من حرجِ



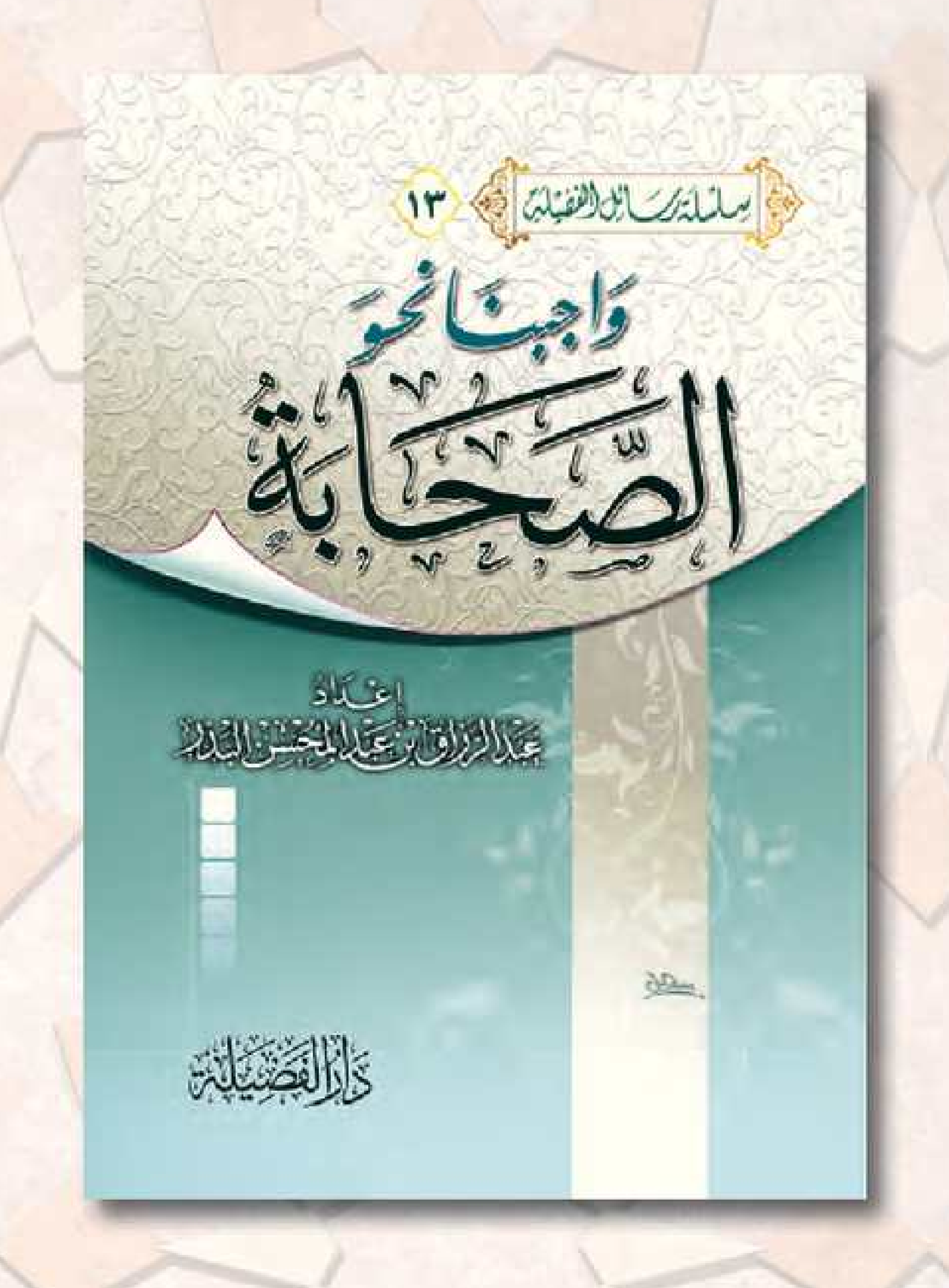
(25) «إعلام الموقعين» (1/6. ط.دار الفكر).
(26) المرجع السابق (ص 462).
(27) «تفسير ابن كثير» (2/32) ط. طيبة.
(28) «مجموع الفتاوى» (8/360).
(29) «تحريم آلات الطرب» (ص 159).



صدر حديثا ضمن

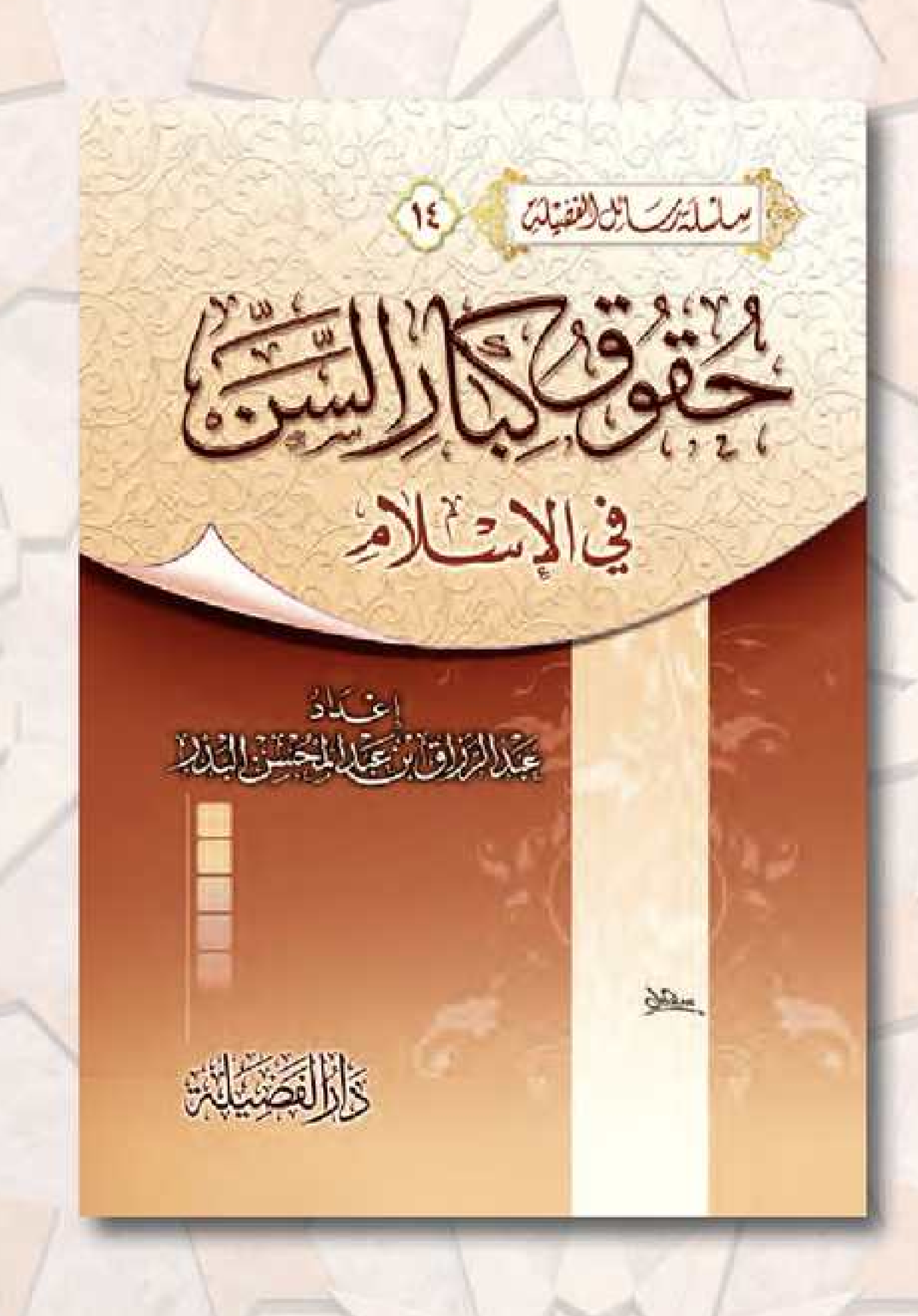
سلسلة رسائل الفضيلة

العددان (13)، (14)



سلسلة رسائل الفضيلة

1. اقتضاء العلم العمل
2. أثر الأذكار الشرعية في طرد الهم والغم
3. كيف تكون مفتاحا للخير
4. فقه الدعاء
5. آثار الفتن
6. عشر قواعد في الاستقامة
7. فوائد الذكر وثمراته
8. صفات الزوجة الصالحة
9. منهج أهل السنة في توحيد الأمة
10. فوائد مستنبطة من قصة لقمان الحكيم
11. شرح حديث سيد الاستغفار
12. العلم وأثره في تزكية النفوس
13. واجبنا نحو الصحابة
14. حقوق كبار السن



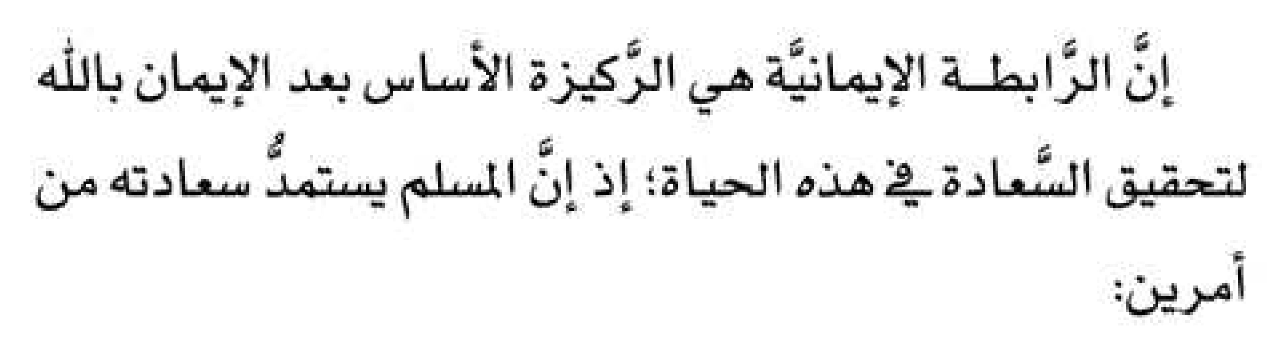
المؤاخاة

بين المهاجرين والأنصار





أزهر سنيقرة



إنَّ الرَّابطـة الإيمانيَّة هي الرَّكيزة الأساس بعد الإيمان بالله لتحقيق السَّعادة في هذه الحياة؛ إذ إنَّ المسلم يستمدُّ سعادته من أمرين:

الأوَّل: بحسـن الصِّلة بالله، وهذه بتحقيـق الإيمان الصَّادق به، وبكلِّ ما جاء من عنده.

والثَّاني: توطيد العلاقة بين أفراد المجتمع، أو تحسين العلاقة بين المؤمنين جميعًا، وهذا بتوثيق علاقة الأخوة بينهم.

❀❀❀

لـذا كان أوَّل أعمـال النَّبـيِّ ﷺ بعـد هجرته بنـاء مسجده الَّذي يجتمع فيه أصحابـه رضي الله عنهم على تعظيم الله وتوحيده، ثمَّ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

هـذا الحدث الَّذي كان له أبعد الأثـر في تغلغل القرآن بشكل واسـع في عامَّـة بيوت الأنصـار والمهاجرين، فلم يمض إلاَّ زمن يسير حتَّى أصبحت البيوت تعجُّ بالحفَّاظ والقرَّاء.

وإنَّ هـذه المؤاخاة لم تكن شكليَّـة، بل حقيقيَّة كأخوَّة النَّسب؛ إذ إنَّ من بنودهـا أن يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه، بالإضافة إلى المواساة في كلِّ أوجه الخير والمحبَّة.

❀❀❀

ولعلَّ من خلال عرض بعض النُّصوص الواردة في هذا الباب يتجلَّى لنا مدى أهميَّة دراستها وأخذ العبر والعظات منها.

□ مـا أخرجـه مسلـم (2529) مـن حديـث أنـس رضي الله عنه قال: «حالـف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصـار في داره الَّتي بالمدينة».

قـال النَّـووي في «شرحـه لصحيـح مسلـم» (82/16) باب المؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم .

□ وعن ابـن عبَّاس رضي الله عنهما قـال: «كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة الَّتي آخى النبي ﷺ بينهم»[1].

قـال السُّهيلي[2]: «آخـى رسول الله ﷺ بـين أصحابه حيث نزلوا المدينـة ليذهب عنهم وحشة الغربـة ويؤنسهم من مفارقة الأهـل والعشيرة، ويشـد أزر بعضهم ببعض، فلمَّـا عزَّ الإسلام، واجتمـع الشَّمـل، وذهبت الوحشـة أنـزل الله سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ أعنـي في المـيراث، ثـمَّ جعل المؤمنـين كلَّهم إخوة، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يعني في التَّوادِّ وشمول الدَّعوة».

❀❀❀

فالمؤاخـاة ثابتـة بين المهاجريـن والأنصار الَّذيـن أثنى الله عليهـم ثناء عطرًا في كتابه فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ

(1) أخرجه البخاري (2292).
(2) «الروض الأنف»: (2/ 252).

مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر]، فبدأ بالثَّناء على المهاجرين ثمَّ ثنَّى بالثَّناء على الأنصار الَّذين بذلوا كلَّ غالٍ ونفيس لإخوانهم، طمعًا في نيل رضا ربِّهم، لذا استحقُّوا أن يكونوا امتحانًا لغيرهم، فأصبح حبُّهم إيمانًا، وبغضهم نفاقًا؛ لقوله ﷺ: «آيَةُ الإيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ»[3]، ولقوله ﷺ: «الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إلاَّ مُنَافِقٌ؛ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ»[4].

فحبُّهم من علامات الإيمان، وهو دليل على صدقه، وهو سبب من أسباب نيل محبَّة الله، فقاتل الله الشِّيعة الرَّوافض، وما أبعدهم عن هذه المعاني.

❁❁❁

«ورغم بذل الأنصار وكرمهم؛ فإنَّ الحاجة إلى إيجاد نظام يكفل للمهاجرين المعيشة الكريمة ظلَّت قائمة، خاصَّة أنَّ أنفة المهاجرين ومكانتهم تقتضي معالجة أحوالهم بتشريع يبعد عنهم أيَّ شعور بأنَّهم عالة على الأنصار، فكان أن شرع نظام المؤاخاة، ولا تختلف الرِّوايات في تاريخ تشريعه إلاَّ اختلافًا يسيرًا، فهي تُجمع على أنَّها وقعت في السَّنة الأولى للهجرة»[5].

وقد شملت المؤاخاة تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين، والنِّصف الآخر من الأنصار، وقيل إنَّه لم يبق من المهاجرين أحد إلاَّ آخى النَّبيُّ ﷺ بينه وبين أنصاريٍّ[6]، فهي كانت بين المهاجرين والأنصار، واختلفوا في المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم، فقد نقل إنكار شيخ الإسلام لها[7]: لأنَّ المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضًا، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النَّبيِّ ﷺ لأحد منهم، ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري».

وقد بين الحافظ ابن حجر «أنَّ هذا ردٌّ للنَّص بالقياس، وإغفال عن حكمة المؤاخاة؛ لأنَّ بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوَّة فآخى بين الأعلى والأدنى»[8].

❁❁❁

والَّذي يهمُّنا في هذا الباب هو الحديث عن المؤاخاة الَّتي حصل الاتِّفاق على ثبوتها بعد هجرة النَّبيِّ ﷺ، والَّتي دامت على بنودها إلى ما بعد غزوة بدر، الَّتي أصابوا منها غنائم كبيرة، فأبطل التَّوارث بينهم، وذلك بنصِّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [الأنفال : 75]، فهذه الآية نسخت التَّوارث بموجب هذه المؤاخاة.

وذهب ابن عبَّاس رضي الله عنهما إلى أن آية: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء : 33] هي الَّتي نسخت التَّوارث بالمؤاخاة، فالموالي عنده هم الورثة بالرَّحم.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ هم المهاجرون الَّذين كانوا يرثون بالمؤاخاة، إلاَّ أنَّه أُلغي التَّوارث.

أمَّا النَّصر والرفادة والنَّصيحة فباقية، وإلى هذا ذهب النَّوويُّ رحمه الله حيث قال: «أمَّا ما يتعلَّق بالإرث فيستحبُّ فيه المخالفة عند جماهير العلماء، وأمَّا المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى، والتَّناصر في الدِّين والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى وإقامة الحقِّ فهذا باقٍ لم ينسخ»[9].

بل إنَّ هذه المؤاخاة بهذه الصِّفة استمرَّت ولم تنقطع، فقد آخى النَّبيُّ ﷺ بين أبي الدَّرداء وسلمان مع أنَّ سلمان أسلم بعد غزوة أحد، وفي هذه المؤاخاة الخاصَّة بين هذين الصَّحابيين تتجلَّى الآثار الطَّيِّبة والمعاني السَّامية لها، فقد روى البخاريُّ في «صحيحه» (1968) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قال: آخى النَّبيُّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدَّرداء فرأى أمَّ الدَّرداء متبذلة[10] فقال لها: ما شأنك؟! قالت: أخوك أبو الدَّرداء ليس له حاجة في الدُّنيا! فجاء أبو الدَّرداء فصنع له طعامًا فقال: كُلْ، قال: فإنِّي صائم، قال: ما أنا بآكل حتَّى تأكل، قال: فأكل، فلمَّا كان اللَّيل ذهب أبو الدَّرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثمَّ ذهب يقوم، فقال: نم، فلمَّا كان من آخر اللَّيل قال سلمان: قم الآن، فصلَّيا، فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأتى النَّبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال النَّبيُّ ﷺ: «صدق سلمان».

❁❁❁

(3) البخاري (17)، ومسلم (74).
(4) البخاري (3783)، ومسلم (75).
(5) «السيرة النبوية الصحيحة» (1/ 243).
(6) «طبقات ابن سعد» (301/9).
(7) «منهاج السنة» (359/7).
(8) «فتح الباري» (271/7).
(9) «شرح مسلم» (82/16).
(10) هو ترك التَّزيُّن والتَّهيُّؤ بالهيئة الحسنة.

■ مـن هـذه الآثار الطَّيِّبـة والمعاني السَّامية الَّتـي تتجلَّى في هـذا الحديث تظهر صورة من صور المؤاخاة العظيمة الدَّالَّة على عظم هذا الدِّين، فمن ذلك:

▪ استمـرار المؤاخاة بين أصحاب النَّبـيِّ ﷺ حتَّى بعد نسخ التَّوريـث، بقـي معنى الأخوَّة الحـقّ الَّتي هي مـنْ نعمة الله على القوم: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾، ولقولـه ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِـنْ أُمَّتِي خَلِيـلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْـرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّة الإِسْـلاَمِ أَفْضَل» [رواه البخاري (3657)].

□□□

▪ فيـه فضـل التَّـزاور في الله الَّـذي رغَّبهم فيـه رسول الله ﷺ، وهـو مـا كان يواظـب عليه مـع أحـبِّ الأصحاب إليـه، كما قالت أمُّ المؤمنـين عائشة ﵂: «لم أعقل أبوي إلاَّ وهمـا يدينـان الدِّين، ولم يمـرَّ علينا يـوم إلاَّ يأتينا فيه رسـول الله ﷺ طرفي النَّهـار بكرة وعشيَّـة»[11]، وهذا من شأنه أن يعزِّز التَّآخي.

□□□

▪ حسـن نصح سلمـان لأخيه فيما يجب عليـه من الحقوق تجاه أخيه.

□□□

▪ فيـه فائدة من فوائـد المؤاخاة وأثر مـن آثارها الطيبة في التعليـم والنصح، لأجل هذا اختار النبـي ﷺ أن تكون المؤاخاة بـين المهاجرين والأنصار، لأن المهاجريـن تميزوا بعلمهم لسبق إسلامهـم، بـل إن هـذه الفائـدةَ تبرز مـن خلال التنـاوب على مجالسة النبي ﷺ والأخذ عنه، كما يُروى في قصة عمر ﵁ مع أخيه الأنصاري في تناوبهما على مجالسة النبي ﷺ.

❁❁❁

ومـن أروع صـور المؤاخـاة التـي تتجلى فيهـا القِيـم العالية والخـلال السامية التي تـدل على علو قدر هـؤلاء الرجال ورفعة منزلتهـم، قصة مؤاخاة الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ﵄.

فقـد روى البخاري في «صحيحه» (2048) عن إبراهيم ابن سعد عن أبيه عن جده قال: قال عبد الرحمن بن عوف ﵁: لما قدمنـا المدينة؛ آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد ابن الرَّبيع.

(11) البخاري (476).

فقال سعـد بن الربيـع: إني أكثر الأنصار مـالا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أيَّ زوجتيَّ هويت نزلت لك عنها، فإذا حلّت، تزوَّجتَها.

فقـال لـه عبد الرحمـن: لا حاجة لي في ذلك، هـل من سوقٍ فيه تجارة؟

قال: سوق قينقاع.

قـال: فغدا إليه عبـد الرحمن، فأتى بأقـط[12] وسمن، قال: ثم تابـع الغدوّ فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صُفرة[13]، فقال رسول الله ﷺ: تزوجت؟ قال: نعم، قال: ومن؟ قال: امرأة مـن الأنصار، قال: كم سُقْت؟ قال: زنـة نواة من ذهب، فقال له النبي ﷺ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ».

▪ ومن فوائد الحديث المتعلِّقة بالمؤاخاة:

إثبات المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار، حيث إنَّه آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ﵄.



فمن خلال هـذه المعاني العظيمة التي تحرك الوجدان وتؤثر في القلوب، يظهر لنا عمق هذه الرابطة التي دعا إليها هذا الدين ويُبرز حقيقة التآخي في الله.

فسموُّ الغاية التي اجتمع عليها هؤلاء الصحب الكرام، وجلال الأسوة الحسنـة التي تمثلت في نبينا الكريم ﷺ، كانت الأساس في بروز هذه النوعية الفـذة من الرجال بهذه الأوصاف والمكارم التي لا تكاد تجتمع إلا في الأنبياء.

نسأل الله جلّ وعلا أن يعيد معاني الأخوة الحقّة إلى المسلمين، لتجتمع كلمتهم وتتوّحد صفوفهم، حتى تتحقق غايتهم.



(12) لبن مجفف يابس مستحجر يُطبخ به [النهاية].
(13) أي خُلوق: هو طيب يصنع من زعفران «الفتح».



حسن أيت علجت

هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟!



روى الإمام البخاري رحمه الله في «صحيحه» (2896) عن مصعب بْنِ سَعْدٍ قَالَ: رَأَى سَعْدٌ رضي الله عنه أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلاَّ بِضُعَفَائِكُمْ؟!».

وزاد الإمام النَّسائيُّ في رواية صحيحة في «سننه» (3127): «بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاَتِهِمْ وَإِخْلاَصِهِمْ»(*).

(*) قال العلاَّمة الألباني في «الصحيحة» (422/2): «إسنادُهُ صحيحٌ على شرط الشيخين».

سبب ورود هذا الحديث:

هو أنَّ سَعْدَ بْنَ أبي وقَّاص رضي الله عنه -وهو منْ أبْطَال الصَّحابة المشْهُورين، ومنَ الرُّمَاة المعْدُودين- ظنَّ أنَّ لهُ فَضْلاً وزيادةً في الغَنيمَة على سَائر المُقَاتلين بسَبَب شَجَاعَته وإقْدَامه، كما جاء ذلك في روايَة مُرْسَلَة لهذا الحديث عند الإمام أحمد في «مسنده» (1493) عَنْ سَعْد رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه؛ الرَّجُلُ يَكُونُ حَاميَةَ الْقَوْم[1]، أَيَكُونُ سَهْمُهُ وَسَهْمُ غَيْره سَوَاءً؟ قَالَ: «ثَكلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ أُمِّ سَعْدٍ! وَهَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلاَّ بِضُعَفَائِكُمْ؟!».

❁❁❁

وأرادَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بذَلكَ حَضَّ سَعْد رضي الله عنه عَلَى التَّواضُع، ونَفْي الزَّهْو عَلَى غَيْره، وتَرْك احْتقَار المُسْلم في كُلِّ حالَة، وأعْلَمَهُ صلى الله عليه وسلم أنَّ سهَامَ المُقَاتلَة سَواءٌ؛ فَإنْ كانَ القَويُّ يَتَرجَّحُ بفَضْل شَجَاعَته، فَإنَّ الضَّعيفَ يَتَرجَّحُ بفَضْل دُعَائه وإخْلاصه، وبَيَّنَ لهُ أنَّ نَصْرَ الله عبَادَهُ المؤمنين، يَكُونُ بسَبَب الضُّعفَاء منْهُمْ، وذلك بدُعَائهم وصَلاَتهمْ وإخْلاَصهم[2].

❁❁❁

(1) الحاميَةُ: الرجُلُ يَحْمي أصحابَهُ، وهو على حَاميَة القَوم، أي: آخرُ مَنْ يَحْميهمْ في مُضيِّهمْ. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ص 1647).
(2) عن «فتح الباري» للحافظ ابن حجر العسقلاني (89/6).

وبَيَانُ ذلك:

أنَّ الأسبابَ الَّتي تَحْصُلُ بها المَقاصِدُ نوعان(3):

النَّوعُ الأوَّل: أَسْبَابٌ حِسِّيَّةٌ مَلْمُوسَةٌ، فالنَّصْرُ يَحْصُلُ بالقُوَّة المادِّيَّة، والرِّزْقُ يَحْصُلُ بالغِنَى والقُدْرَة على الكَسْب، وهذا النَّوْعُ هو الذي يَغْلِبُ على قُلُوب أَكْثَر الخَلْق، ويُعَلِّقُون به حُصُولَ النَّصْر والرِّزْق، وهم في ذلك بَيْنَ مُقْتَصِد وغَالٍ مُفْرِط، حتَّى وصَلَت الحَالُ بكَثِيرٍ من أَهْل الجاهليَّة أَنْ يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الفَقْر، فَنَهَاهُمُ الله ﷻ عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٖۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: 31]، ومِنْ ذلك ظَنُّ بَعْض مُسْلمي زمانِنَا أَنَّ انْتِصارَهُم على أعْدائهم من اليَهُود وغَيْرِهم، لا يَكُونُ إلاَّ بتَحْصِيل التِّكْنُولُوجيا والقُوَّة العَسكريَّة، ولو بَقَوْا على مَعَاصِيهِم وانْحِرافِهِمْ عن دِين الله ﷻ.

وهذا كُلُّه قِصَرُ نَظَر، وضَعْفُ إيمَان، وقِلَّةُ ثِقَة بوَعْد الله وكِفَايَتِه، ونَظَرٌ للأُمُور على غَيْر حَقِيقَتِهَا.

❁❁❁

النَّوعُ الثاني: أَسبَابٌ مَعْنَوِيَّةٌ، وهي قُوَّةُ التَّوَكُّل على الله في حُصُول المَطالب الدِّينيَّة والدُّنْيَوِيَّة، وكَمَالُ الثِّقَة به، وقُوَّةُ التَّوَجُّه إِلَيْه والطَّلَب مِنْهُ، وهذه الأسبابُ المَعْنَوِيَّةُ تَقْوَى جِدًّا مِنَ الضُّعَفاء العَاجِزِينَ.

□ وهذا لأُمُور كَثِيرَة، منها:

أوَّلاً: أَنَّ الضُّعَفَاءَ العَاجزين أَلْجَأَتْهُم الضَّرُورَةُ إلى أَنْ يَعْلَمُوا حَقَّ العِلْم أَنَّ كِفَايَتَهُم ورزْقَهُم ونَصْرَهُمْ مِنْ عِنْد الله، وأنَّهُم في غايَة العَجْز، فَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُم، وتَوَجَّهَتْ إلى الله، فَأَنْزَلَ لَهُمْ مِنْ نَصْره ورزْقه - مِنْ دَفْع المكَارِه، وجَلْب المنَافِع - مَا لا يُدْرِكُهُ القَادِرُون.

ثانيا: «أَنَّ الضُّعَفَاءَ أَشَدُّ إِخْلاصًا في الدُّعَاء، وأَكْثَرُ خُشُوعًا في العِبادَة لخَلاء قُلُوبِهم عَن التَّعَلُّق بزُخْرُف الدُّنيا»(4).

ثالثا: أَنَّ الضَّعيفَ إذا رَأَى عَجْزَهُ وعَدَمَ قُوَّته؛ تَبَرَّأَ عَن الحَوْل والقُوَّة بإِخْلاص، واسْتَعَانَ بالله؛ فَكَانَتْ لَهُ الغَلَبَةُ، بخِلاف القَوِيِّ، فإِنَّه يَظُنُّ أَنَّهُ إنَّمَا يَغْلِبُ الرِّجَالَ بقُوَّته؛ فَتُعْجِبُه نَفْسُه غَالِبًا، وذلكَ سَبَبٌ للخِذْلان، كَمَا أَخْبَرَ الله تعالى عَنْ بَعْض مَنْ شَهِدَ وَقْعَة حُنَيْن، فقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: 25](5).

(3) عن «بهجة قلوب الأبرار» للشيخ عبد الرحمن السعدي (239-240) بتصرُّف وإضافة.

(4) قاله ابن بطال، انظر: «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (89/6).

وقد ذكَرَ الإمامُ ابن القيم رحمه الله حَرْفَ هذه المسألَة في «إعْلَام المُوَقِّعِين» (199/2) فقال: «إذا قامَ العَبْدُ

- بالحَقِّ على غَيْرِه، وَعَلَى نَفْسِه أَوَّلاً.
- وكان قِيَامُه بالله.
- ولله.

لمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كادَتْهُ السَّمواتُ والأَرْضُ والجِبَالُ؛ لَكَفَاهُ اللهُ مُؤْنَتَهَا، وجَعَلَ لَهُ فَرَجًا ومَخْرَجًا.

وإنَّمَا يُؤْتَى العَبْدُ مِنْ تَفْريطِه، وتَقْصِيرِه في هَذِه الأُمُور الثَّلاثَة، أَوْ في اثْنَيْن مِنْهَا، أَوْ في واحد:

فمَنْ كانَ قِيامُهُ في بَاطِل لَمْ يُنْصَرْ، وإِنْ نُصِرَ نَصْرًا عَارِضًا؛ فَلاَ عَاقِبَةَ لَهُ، وهو مَذْمُومٌ مَخْذُولٌ.

وإنْ قامَ في حقٍّ، لَكِنْ لَمْ يَقُمْ فيه لله، وإنَّمَا قَامَ لِطَلَب المَحْمَدَة والشُّكُور والجَزَاء من الخَلْق، أو التَّوَصُّل إلى غَرَض دُنْيَوِيٍّ كَانَ هُوَ المقصُودُ أوَّلاً، والقِيَامُ في الحَقِّ وَسِيلَة إِلَيْه؛ فهذا لَمْ تُضْمَنْ لَهُ النُّصْرَةُ، فإِنَّ اللهَ إنَّمَا ضَمِنَ النُّصْرَةَ لِمَنْ جَاهَدَ في سَبيله، وقَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، لا لِمَنْ كَانَ قِيَامُهُ لنَفْسه ولهَوَاهُ، فإِنَّه لَيْسَ مِنَ المُتَّقِينَ ولاَ مِنَ المُحْسنِينَ، وإِنْ نُصِرَ؛ فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الحَقِّ، فإنَّ اللهَ لا يَنْصُرُ إلاَّ الحَقَّ، وإذا كانت الدَّوْلَةُ لأَهْل البَاطِل فَبِحَسَب مَا مَعَهُمْ مِنَ الصَّبْر، والصَّبْرُ مَنْصُورٌ أَبَدًا، فإِنْ كانَ صَاحِبُهُ مُحِقًّا؛ كَانَ مَنْصُورًا لَهُ العَاقِبَةُ، وإِنْ كَانَ مُبْطِلاً؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَاقِبَةٌ.

وإذَا قَامَ العَبْدُ في الحَقِّ لله، ولكنْ قامَ بنَفْسه، وقُوَّته، ولم يَقُمْ بالله؛ مُسْتَعِينًا به، مُتَوَكِّلاً عليه، مُفَوِّضاً إليه، بَرِيًّا مِنَ الحَوْل والقُوَّة إلاَّ به؛ فلَهُ مِنَ الخُذْلَان، وضَعْف النُّصْرَة، بِحَسَب ما قَامَ به مِنْ ذَلِكَ.

ونُكْتَةُ المَسْأَلَة: أَنَّ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدَيْن في أَمْر الله(6)، لا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ أَلْبَتَّةَ، وصَاحِبُهُ مُؤَيَّدٌ مَنْصُورٌ، ولَوْ تَوَالَتْ عَلَيْه زُمَرُ الأَعْدَاء» اهـ.



(5) عن «فيض القدير» للمناوي (109/1) باختصار وإضافة.

(6) أي: توحيد العِبَادة وتوحيد الاسْتِعَانَة المذْكُورَيْن في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: 5].

حلُّ إشكَالٍ:

روى مُسْلِمٌ في «صحيحه» (2664) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ..» الحديث.

فكيفَ التَّوفيقُ بَيْنَهُ، وبَيْنَ حديثِ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه هذا؟

للعُلَمَاء - رحمهم الله - عِدَّةُ أجوبة، منها[7]:

أولاً: أنَّ المرادَ بمَدْحِ القُوَّة: القُوَّةُ في ذَات الله، وشِدَّةُ العَزِيمَة، وبذَمِّ القوَّة: التَّجَبُّرُ والاستكبارُ، والمرادُ بمَدْحِ الضَّعْف: لِينُ الجَانِب، ورقَّةُ القَلْب، والانْكسارُ بمُشَاهَدَة جلال الجَبَّار، وبذَمِّ الضَّعْف: ضَعْفُ العَزِيمَة في القِيَام بحَقِّ الوَاحد القَهَّار، فلا يَلْزَمُ من الضَّعْف المذكور عَدَمُ القُوَّة في البَدَن، ولا عَدَمُ القُوَّة في القِيَام بالأَوَامر الإلَهيَّة، وعلى هذا؛ فَلا يُعَارضُ الأَحاديثَ التي مُدِحَ فِيهَا الأَقْوِيَاءُ.

ثانيـاً: قد يَكونُ المُرَادُ بمَدْح القُوَّة: قُوَّةَ الرَّأْي والتَّدْبير، ومن ذلك ما قاله الذَّهبيُّ في «السير» (75/2) في ترجمة أبي ذَرٍّ الغفاريِّ رضي الله عنه: «وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأبي ذَرٍّ، مَعَ قُوَّة أبي ذَرٍّ في بَدَنِه، وَشَجَاعَته: «يَا أَبَا ذَرٍّ؛ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي: لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»[8]، فَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى ضَعْفِ الرَّأْيِ؛ فَإِنَّهُ لَو وَلِيَ مَالَ يَتِيمٍ، لأَنْفَقَهُ كُلَّهُ فِي سَبِيْلِ الخَيْرِ، وَلَتَرَكَ اليَتِيْمَ فَقِيْراً، فَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ كَانَ لاَ يَسْتَجِيْزُ ادِّخَارَ النَّقْدَيْنِ، وَالَّذِي يَتَأَمَّرُ عَلَى النَّاس، يُرِيدُ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ حِلْمٌ وَمُدَارَاةٌ، وَأَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه كَانَتْ فِيْهِ حِدَّةٌ. كَمَا ذَكَرْنَاهُ. فَنَصَحَهُ النَّبِيُّ ﷺ» اهـ.

ثالثـاً: أنَّه لم يَقُلْ هُنا ﷺ: إنَّهم يُنْصَرُونَ بقُوَّة الضُّعَفَاء، وإنَّما مُرَادُهُ بدُعَائهم وإخْلاصهم.

رابعا: أنَّ المرادَ من حديث سَعْد رضي الله عنه هو: أنَّ دُعَاءَ وصَلاةَ وإخلاصَ الضُّعفاء، منْ أعْظَم أسبَاب الرِّزْق والنَّصْر، ولكن لَيْسَ سَبَبًا وَحيدًا؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ لذلك أسبابٌ أُخَرُ، فإنَّ الكفَّارَ والفُجَّارَ يُرْزَقُونَ، وقد يُنْصَرُونَ اسْتدرَاجًا، وقَدْ يُخْذَلُ المؤمنُون ليَتُوبُوا، ويُخْلصُوا، فَيُجْمَعَ لهُم بَيْنَ غَفْر الذَّنْب، وتَفْريج الكَرْب، ولَيْسَ كُلُّ إنْعَام كَرَامَةً، ولا كُلُّ امْتحَانٍ عُقُوبَةً.

(7) عن «فيض القدير» للمناوي (110/1)، و (458/6) بتصرُّف وإضافة.
(8) أخرجه أحمد في «المسند» (21563)، ومسلم (1826).

فوائد الحديث

■ في هذا الحديث أنَّه لا يَنْبَغي للأَقْوِيَاء القَادرين أنْ يَسْتَهينُوا بالضُّعَفَاء العَاجزين، لا في أُمُور الجهاد والنُّصْرَة، ولا في أُمُور الرِّزْق وَعَجْزهم عَن الكَسْب[9].

وقد تَرْجَمَ الإمامُ البخاريُّ لهذا الحَديث بقَوْله: «بابُ مَن اسْتَعَانَ بالضُّعَفاء والصَّالحين في الحَرب».

□□□

■ وفيه فَضْلُ الضُّعفَاء المسلمين الصَّالحين.

ذلك بأَنَّهم أَتْبَاعُ الرُّسُل، كما جاء في «صحيح البخاري» (7): أنَّ هرقلَ عَظيمَ الرُّوم قال لأبي سفيان رضي الله عنه - قَبْلَ إسْلامه - بخُصوص النَّبيِّ ﷺ: «وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاس اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُل».

□□□

■ وفيه التَّحذير منَ التَّكَبُّر على الفُقَرَاء، والمحَافَظَةُ على جَبْر خَوَاطرهمْ[10].

□□□

■ وفيه أنَّ العُدَّةَ الإيمَانيَّةَ أَقْوَى من العُدَّة المادِّيَّة.

وفي هذا قال العلاَّمة المناوي في «فيض القدير» (109/1):

«فيه إعْلامٌ بإسْقَاط كَلمَة النَّصْر بالأَسْبَاب والعُدَّة والعَدَد والآلات المُتْعبَة الشَّاقَّة، والاسْتغْنَاء بتَعَلُّق القُلوب بالله تعالى، فنُصْرَةُ هذه الأُمَّة إنَّما هي بضُعَفَائهَا، لا بمُدَافَعَة الأَجْسَام؛ فلذَلك افْتَتَحَ المُصطفَى المَدينَةَ بالقُرآن[11]، ويفْتَحُ خَاتمَةُ هذه الأُمَّة القُسطَنْطينيَّةَ بالتَّسْبيح والتَّكْبير[12]».

ثم قال بعد ذلك نَقْلاً عَنْ بَعض العُلَمَاء:

«ومنْ حكْمَته - تعالى - أنَّه أَمَرَ بالعُدَّة للعَدُوِّ، وأَخْذه بالقُوَّة،

(9) عن «بهجة قلوب الأبرار» للسعدي (ص: 239).
(10) قاله العلاَّمة الطِّيبيُّ، انظر: «فيض القدير» للمناوي (109/1).
(11) يُشيرُ إلى حديث: «فُتحَت البِلادُ بالسَّيْف، وفُتحَت المَدينَةُ بالقُرْآن»، وهو مخرَّجٌ في «الضعيفة» (6458)، وقال فيه العلاَّمة الألباني: «منكر»، والصَّحيحُ أنَّها مَقُولَةٌ للإمام مالك رحمه الله، كما قال الإمام أحمد رحمه الله، انظر: «تنقيح التَّحقيق» للحافظ ابن عبد الهادي (610/4).
(12) يُشيرُ إلى الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» (2920) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَقَ، فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا، فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلاَحٍ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ، قَالُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ، فَيَدْخُلُوهَا، فَيَغْنَمُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ؛ إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ، فَقَالَ: إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ، فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَرْجِعُونَ».

وأَخْـبَرَ أنَّ النَّصْرَ بعـد ذلك يكُونُ بالضُّعَفَـاء، ليُعْلِمَ الخَلْقَ فيمَا أُمِرُوا به منَ الاسْتعْدَاد وأَخْذ الحذْر، أَنْ يَرْجِعُوا للحَقيقَة، ويَعْلَمُوا أنَّ النَّصْـرَ مـنْ عنْد الله، يُلْقيه علـى يَد الأَضْعَـف، فالاسْتعْدَادُ للعَـادَة، والعِلْمُ بجِهَة النَّصْر في الضَّعيف للتَّوحيد، وأنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للَّه؛ عَادَةً وحَقيقَةً يُدَبِّرُهُ كَيْفَ شَاءَ» اهـ.

□□□

وفيـه أنَّ اللَّهَ يَجْلِـبُ للنَّاسِ المَنَافعَ، ويَدْفَـعُ عَنْهُم المَضَارَّ بدُعَاء عِبَاده المؤمنين وصَلاَتِهم وعبَادَتِهِمْ.

قـال شيـخ الإسـلام ابـن تيميـة رحمه الله في «جامـع المسائل» (62.61/2):

«وأيضًا، فـإنّ اللهَ بعِبَادَات عبَاده المؤمنـين، ودُعَائهم يَجْلِبُ للنَّاس المَنَافع، ويَدْفَعُ عنهم المضَارَّ، كما في «السُّنن» أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلاَّ بضُعَفَائكُمْ: بدُعَائهِمْ وَصَلاَتِهِمْ وَإِخْلاَصِهِمْ؟!».

وانْتفَـاعُ الخَلْـقِ بدُعَـاء المؤمنـين وصَلاتِهم، كانْتفَـاع الحَيِّ والميِّت بدُعَاء المؤمنين واسْتغْفَارهم، ونُزُول الغَيْث بدُعَاء المؤمنين واسْتغْفَارهم، والنَّصْر على الأَعْدَاء بدُعَاء المؤمنين واستغْفَارهم، وأمْثَال ذلك ممَّا اتَّفَقَ عليه المؤمنون».

□□□

وفيه أنَّ من فوائد الإخلاص النَّصْرَ على الأَعْدَاء.

ولهذا ساق الإمامُ المنذري هـذا الحديثَ في كتَابه «التَّرغيب والتَّرهيب» في بـاب «الترغيـب في الإخلاص والصِّـدْق والنيَّة الصَّالِحَة».

□□□

وفيـه إشارَةٌ إلى أنَّ النَّصرَ والرِّزْقَ جمَاعُ مَصَالحِ الإنسان في مَعَاشـه؛ إذْ بالنَّصْـر دَفْـعُ الضَّـرَرِ، وبالـرِّزْقِ جَلْـبُ النَّفْـع، واسْتمْرَارُ الحَيَاة.

مِـنْ أَجْـلِ ذلـك، فـإنَّ اللهَ عز وجل كَثـيرًا ما يَمْـتَنُّ علـى عبَاده بهَاتَـيْنِ النِّعْمَتَـيْنِ الجَليلَتَـيْنِ، ويُذَكِّرُهُـم بهمَـا، وذلك في مثل قَوْلـه عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الأنفال]، وقولـه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الملك]، وقولـه في النَّصـر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة المائدة]، وقوله أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الأحزاب].

وقَوْله في الرِّزْق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة فاطر].

□□□

وفيه أنَّ طَاعَـةَ الله عز وجل، وتَقْوَاهُ منْ أَعْظَم أَسْبَابِ حُصُولِ الرِّزْقِ والنَّصْر.

وقـد قـرَّر اللهُ تعالى هذا المعنـى في كتابه الكـريم، في قَوْله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق].

قـال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الآية في «مجموع فتاواه» (56/16):

«جَعَـلَ للتَّقْوَى فَائدَتَيْنِ: أَنْ يَجْعَلَ لَـهُ مَخْرَجًا، وَأَنْ يَرْزُقَهُ منْ حَيْثُ لا يَحْتَسبُ، وَالمَخْرَجُ هُوَ مَوْضعُ الخُرُوج، وَهُوَ الخُرُوجُ، وَإنَّمَا يُطْلَبُ الخُـرُوجُ منَ الضِّيـقِ وَالشِّدَّة؛ وَهَـذَا هُوَ الفَـرَجُ وَالنَّصْرُ وَالرِّزْقُ، فَبَيَّنَ أَنَّ فيهَا النَّصْرَ وَالرِّزْقَ».

وسـرُّ هـذه المسألـة، وحَقيقَتُهـا: أَنَّ اللهَ تعالى خَلَـقَ الخَلْق لحكْمَـة سَاميَة وغَاية جليلة، أَلا وهي عبَادَتُه وطاعَتُه، وضمنَ لِمَن فَعَلَ ذلك جلْبَ الرِّزْقِ له، ودَفْعَ الضُّرِّ عنه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الذاريات]، فهـو سبحانه رزَّاقٌ: يرزُقُ عبَادَهُ من فضْله، وذو قُوَّة مَتينٌ: يَنْصُر عبَادَهُ، ويَدفَعُ عنهم الضُّرَّ بقُوَّته جلَّ وعلا.

والله تعالى أعلم، والحمدُ لله ربِّ العالمين.





فتاوى شرعية

أ.د. محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في صور ضمان الملتقط

السُّؤال:

أنا امرأةٌ أعلِّم العجائز في إطار محو الأمِّيَّة في المسجد، جِيءَ إليَّ بخاتم من ذهب عُثر عليه في المسجد؛ فحفظتُه عندي على أساس أن يظهر صاحبه دون تعريف به، فضاع منِّي علمًا أنِّي لم أحفظ صفتَه ولا وزنَه، فهل عليَّ ضمانٌ؟ وكيف أقوِّمه؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالذَّهب والفضَّة وسائر النُّقود والأواني والأمتعة وغيرها ممَّا تتبعه همَّة أوساط النَّاس؛ فإنه ممَّا يجوز الْتقاطُه بشرط أن يأمن نفسه عليها ويحفظها ويستطيع أن يعرِّف بها، فتكون يده عليها ـ والحال هذه ـ يد أمانة يَلزمه وجوبًا التَّعريفُ بها سنةً كاملةً بعد ضبط صفاتها والمناداة عليها في مجامع النَّاس ولو بالنِّيابة.

ذلك لأنَّ حفْظَ الأمانة وأداءَها واجبٌ على من ائتُمن عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النِّسَاء: 58]، ولقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون].

وتكون اللُّقطة مِلْكًا للملتقط إذا ما تحقَّق التَّعريف بها حولاً كاملاً، فإن جاء صاحبُها ـ لو بعد مُضيِّ الحول ـ ووصفها له بما يطابق أوصافَها دفعها إليه؛ لحديث زيد بن خالد الجُهَنيِّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم سئل عن لُقَطة الذَّهب أو الوَرِق فقال: «اعْرِفْ وِكَاءَهَا وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، فَإِنْ لَمْ تَعْرِفْ فَاسْتَنْفِقْهَا، وَلْتَكُنْ وَدِيعَةً عِنْدَكَ، فَإِنْ جَاءَ طَالِبُهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَأَدِّهَا إِلَيْهِ»(1).

هذا؛ فإن ضاعت ممَّن أمن نفسه عليها وحفظها وقَدَرَ على التَّعريف بها من غير تَعَدٍّ منه ولا تفريط؛ فلا ضمانَ عليه؛ لأنَّ يد الملتقط يدُ أمانة ـ كما تقدَّم ـ، وكان سبب ضياعها خارجًا عن مسؤوليَّته ولم يكن بتفريط.

أمَّا إذا كان ضياع الأمانة بسبب تعدِّيه وتفريطه؛ فإنَّه يضمن اللُّقَطةَ؛ لأنَّ الإخلال بالأمانة بالتَّفريط والتَّعدِّي يوجب الضَّمانَ عليه.

كما يُلحق بالحكم من لا يأمن من نفسه حفْظَ الأمانة، أو من لا قدرة له على التَّعريف بها، فإن أخَذَها؛ فيدُه عليها يدُ غصب حيث وضعها على مِلْك غيره على وجه الاعتداء، لذلك لا تبرأ ذمَّتُه إلاَّ بتضمينها، وله أن يقوِّم ما ضيَّعه بثمن المثل، ويعمل بالاجتهاد في إدراك المثل إذا جهل المقدار.

وفي حالة عدم التَّمكُّن من ردِّه إلى مستحقِّه بعد مُضيِّ المدَّة المقرَّرة؛ فإنَّه يتخلَّص منه بالصَّدقة عليه ويصير أجرُه لمالكه الأصلي، والعلم عند الله تعالى.



(1) أخرجه البخاري (91)، ومسلم (1722).

فتاوى شرعية

في حكم التّنازل عن السّكن التّساهمي مُقابل عوض

السُّؤال:

ما حكم من أبرم عقدًا مع مقاول للحصول على سكن تساهميٍّ، فهل له أن يتنازل لغيره مقابلَ عوضٍ؟ وجزاكم الله خيرًا.

الجواب:

إذا دخل مستفيدٌ مع مقاولٍ في عقد للحصول على سكن تُسهم فيه الدَّولة بنصيب ماليٍّ معتبر؛ قَصْدَ إعانة ذي الدَّخل المحدود للخروج من أزمته السَّكنيَّة؛ فإنَّ المستفيد له حقٌّ معنويٌّ يُكسبه قيمةً ماليَّةً مستفادةً من عقد السَّكن، فلا يجوز الاعتداء على حقِّه المالي من جهةٍ، ولولا إسهام الجهة المانحة للمال كمُسهم متبرِّع في العقد - من جهةٍ أخرى - لجاز للمستفيد - أيضًا - التَّصرُّف في حقِّه الماليِّ بنقله إلى غيره أو التَّنازل عنه بعوضٍ ماليٍّ أو بدون عوض، إذ يقع على حقِّه اسم المال.

قال السُّيوطي رَحِمَهُ اللهُ: «أمَّا المال، فقال الشَّافعي: لا يقع اسم مالٍ إلاَّ على ما له قيمةٌ يباع بها وتَلْزم مُتْلِفَه، وإن قلَّت وما لا يطرحه النَّاس مثل الفلس وما أشبه ذلك»[2].

غيرَ أنَّ وجود الدَّولة طرفًا ثالثًا مسهمًا في عقد البناء على وجه الإعانة يجعل التَّصرُّف متوقِّفًا على إجازتها، فإن أجازته جاز لموافقته للحكم الأصلي، وإن منعته فلا يتحقَّق التَّنازل مطلقًا إلاَّ برضا الطَّرف الثَّالث المعين والمسهم، والعلم عند الله تعالى.

(2) «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي (327).



في حكم بيع وتناول «البيرة» دون كحول

السُّؤال:

ما حكم بيعِ وتناوُلِ «البيرة» بدون كحولٍ؟

الجواب:

مضمون السُّؤال يستدعي التَّفريقَ بين ذات «البيرة» بصفتها مشروبًا، وبين صفة تناوُلِ هذا المشروب أو طريقة تعاطيه.

والمعلوم أنَّ المشروب - في ذاته - إن كان خاليًا من المادَّة الكحوليَّة المسكرة فهو شرابٌ جائزٌ تناوُلُه وبيعُه، لا يختلف - من حيث حلِّيَّته - عن المشروبات الأخرى، ذلك لأنَّ السّكر هو علَّة التَّحريم، ويدور الحكم مع علَّته وجودًا وعدمًا، فمتى وُجد الإسكار أو انتفى؛ فإنَّ التَّحريم يوجد أو ينتفي بحسَبه.

ومنه يُعلم أنَّ عصير العنب - مثلاً - إذا تجرَّد من علَّة الإسكار حلَّ تناوُلُه، وإذا انعقد خمرًا بحلول المسكر فيه حَرُمَ شربُه وبيعُه، وإذا تغيَّرت أحدُ أوصاف الخمر مع بقاء مادَّة الإسكار فيه؛ فإنَّ حكم التَّحريم يبقى ساريًا عليه.

أمَّا إذا تغيَّرت حقيقة الخمر؛ فانتقلت من التَّخمير إلى التَّخليل؛ فإنَّها تحِلُّ بالإجماع.

قال النَّووي رَحِمَهُ اللهُ:

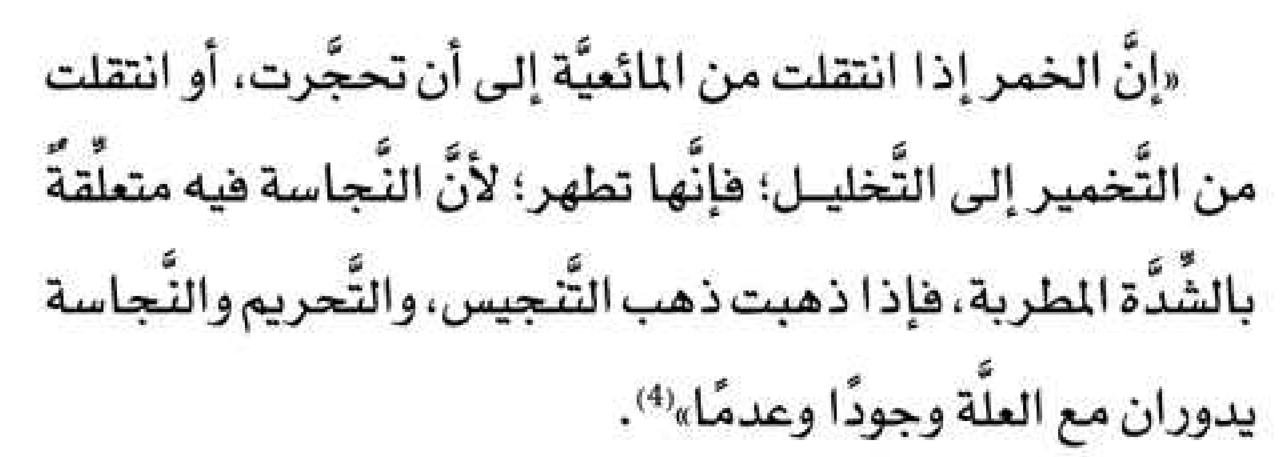
«وأجمعوا أنَّها - أي: الخمر - إذا انقلبت بنفسها خلاًّ طَهُرَت، وقد حُكي عن سحنون المالكي أنَّها لا تَطْهُر، فإن صحَّ عنه فهو محجوجٌ بإجماع من قبله»[3].

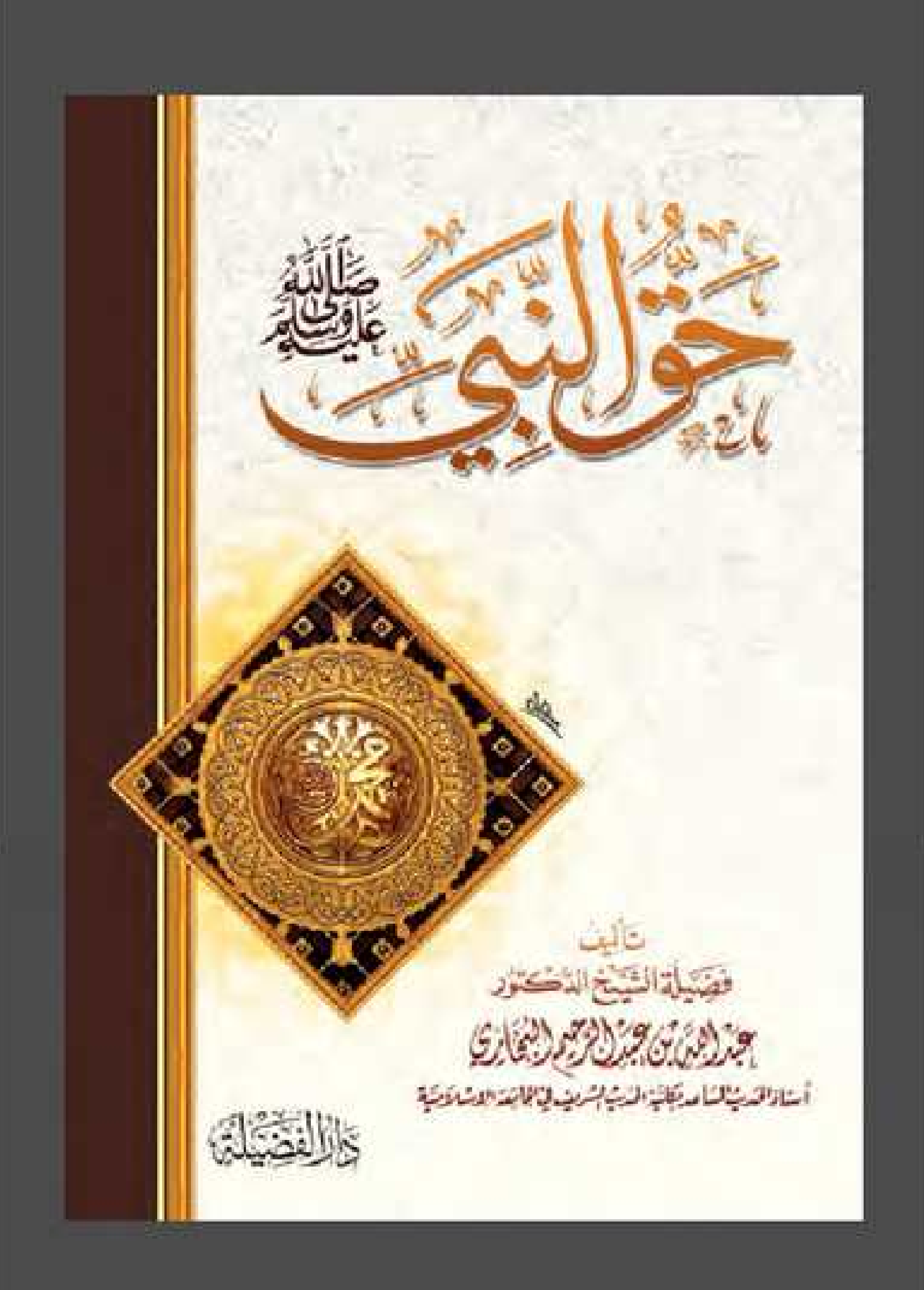
قلت:

فأمَّا انقلابها حلالاً فمن أجل تغيُّر حقيقتها بزوال المادَّة المسكرة منها، فكان دوران الحكم الوجوديِّ والعدميِّ مع علَّته.

قال الخرشي رَحِمَهُ اللهُ:

(3) «شرح النَّووي على صحيح مسلم» (13/152).





«إنَّ الخمر إذا انتقلت من المائعيَّة إلى أن تحجَّرت، أو انتقلت من التَّخمير إلى التَّخليـل؛ فإنَّها تطهر؛ لأنَّ النَّجاسة فيه متعلِّقةٌ بالشِّدَّة المطربة، فإذا ذهبت ذهب التَّنجيس، والتَّحريم والنَّجاسة يدوران مع العلَّة وجودًا وعدمًا»[4].

أمَّـا من جهـة صفة تناوُل هـذا المشروب فقـد يُمنع منه من الحيثيَّتين التَّاليتين:

الأولى: وإن كانت العبرة بالمسمَّى لا بالاسم إلاَّ أنَّ بين المشروب المسكر وغير المسكر تطابقًا في شكل القارورة ولون المشروب وكذا التَّسمية، وتورث متناولها أو بائعها شبهة وتهمةً في دينه، والأصل في المسلم تجنُّب محالِّ التُّهم لئلاَّ يُقدح في عدالته.

الثَّانيـة: قـد يتَّصـف الشَّـارب لهـا بأوصـاف أهـل الفجور والمعاصـي محـاكاةً لأفعالهم في معاقـرة الخمرة، وخاصَّـةً وأنَّ المنزوعـةَ المـادَّةَ المسكرةَ شبيهـةٌ بها في شكلهـا وصورتها، الأمرُ الَّذي قد يجرُّه إلى محبَّـة أهل الفجور وعدم الإنكار عليهم، وقد يكون ذلك دافعًا إلى الوقوع في المحرَّم.

وعليـه؛ فمشـروب «البيرة» دون كحـول ـ وإن كان لا يَرِدُ عليه تحـريمٌ من حيث ذاتُـه بالنَّظر لخلوِّه من المادَّة المسكـرة ـ إلاَّ أنَّه قـد يَـرِدُ المنع منها من بـاب سدِّ ذريعة التُّهمـة القادحة في دينه وعدالتـه؛ عملاً بقاعـدة أنَّ: «الفعـل إذا كان يفضي إلى مفسدةٍ وليس فيه مصلحةٌ راجحةٌ يُنهى عنه»[5].

□□□

والعلـم عنـد الله تعـالى، وآخـر دعوانـا أن الحمـد لله ربِّ العالمـين، وصلَّـى الله على محمَّدٍ وعلى آلـه وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.



(4) «الخرشي على خليل» (1/88).
(5) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (1/164).

سير الأعلام



عقد الجواهر النفيس

المنتقى من الرَّحلات الدَّعويَّة للإمام العلاَّمة عبد الحميد بن باديس رحمه الله



أشرف جلال ابن أودينة

ماستر فقه وأصول جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة

الحمـد لله ربِّ العالمين، القائـل في كتابه المبين ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل : 125]، وقال للمبعوث رحمةً للعالمين: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران : 159]، والصَّـلاة والسَّلام على نبيِّـه الأمين. جاد بنفسه وماله لإعلاء رايـة الدِّيـن. القائل في سنَّته: «إِنَّ الرِّفْـقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِـنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ»، صلَّـى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتَّابعين من العلماء العاملين والأيمَّة المرضيِّين، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ [الأنعام : 90]، وبعد:

فمـن البرِّ بأهل العلم وإكرامهم نشرُ محاسنهم وبيان جهودهم وتقريب علومهم، وكذا الذَّبّ عنهـم والدِّفاع عن أعراضهم ببيـان رفيع قدرهم وعظيم فضلهم، ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الَّذين سبقونا بالإيمان.

❁❁❁

وإنَّ النَّـاظر في رحلات الشَّيخ الإمام المصلح المجدِّد عبد الحميد بن باديس[1] من خلال آثاره؛ يقـف على جهوده الدَّعويَّة ويعرف مدى حرصه على بناء المساجـد ونصح العامَّة وتعليمهم ولقاء العلماء وتوجيههم في رفقٍ وحكمة وحسن خلق.

❁❁❁

وهـذا عقدٌ فريـدٌ انتخبته من الرَّحلات الدَّعويَّة للشَّيخ في بعض جهات الوطن، جمعت فيه ما تناثر من جواهر العلم، وقرَّبتها للنَّاظر؛ خدمةً لتراث الشَّيخ، ورجاء أن تكون زادًا ينتفع به طلاَّب العلـم ودعـاة السُّنَّة والخير، ووسمتهـا بـ«عقد الجواهـر النَّفيس المنتقى من الرَّحـلات الدَّعويَّة للإمام العلاَّمة عبد الحميد ابن باديس»، ودونك ـ أيُّها القارئ الموفَّق ـ ما جمعت ورتَّبت.

❁❁❁

(1) هو أشهر وأجلُّ من أن يترجم له، فإمامة الشَّيخ وشهرته برئاسة جمعية العلماء المسلمين وحربه للشِّرك وطرق الصُّوفيَّة وسائر البدع مستفيضة.

قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ[2]: «عرَّفتني تنقُّلاتي في بعض قرى ما في قلوب عامَّة المسلمين الجزائريِّين من تعظيم للعلم وانقياد لأهله إذا ذكَّروهم بحكمة وإخلاص».

ومن ثمار الرِّفق في الدَّعوة واللِّين أن ملَّكه الله قلوب الموافقين، وساق له في هدوء أفئدة المخالفين في مجالس علميَّة زيَّنتها الحكمة.

❁❁❁

قال رَحِمَهُ اللهُ:

«ماحللت بقعة إلاَّ التفَّ أهلها حولي يسألون ويستمعون في هدوء وسكون وكلُّهم أو جلُّهم منتمون للطُّرق من مقدَّم وشاوش وخوني».

ولا تعجب - أيُّها الموفَّق - فقد سلك هذا الإمام سبيل التَّمكين، ويممَّ وجهه سبيل الأنبياء والمرسلين في الدَّعوة إلى الله.

❁❁❁

قال رَحِمَهُ اللهُ: «ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلاَّ لتوحيد الله والتَّفقُّه في الدِّين والرُّجوع إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ورفع الأميَّة والجدِّ في أسباب الحياة من فلاحة وتجارة وصناعة...

إلى أن قال: كنت أذكِّرهم بهذا كلِّه، وأقرأ على وجوههم سمات القبول والإذعان، وأنا على يقين من بقاء أثر نافع لذلك بصدق وعد قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]».

❁❁❁

■ **الإسلام الصحيح:**

قال رَحِمَهُ اللهُ[3]: «وسُئلنا عن الإسلام الصَّحيح؛ فأجبنا بأنَّه ما في القرآن والسُّنَّة، بيَّنَّا القرآن، وبيَّنَّا أثر القرآن في العرب، وكيف تطوَّروا به ذلك التَّطوُّر الغريب السَّريع؛ من انحطاط الجاهلية إلى رقيِّ الإسلام وما يناسب من هذا التَّذكير».

❁❁❁

■ **الدَّعوة إلى التَّوحيد والتَّمسُّك بالسُّنَّة هي الميزان الَّذي يوزن به الدُّعاة والرِّجال:**

قال الشَّيخ: «كنت أجيب عندما أُسأل عن المقدّمين بأنَّ الَّذي يستحقُّ التَّقديم هو من يكون عارفًا معرِّفًا داعيًا إلى التَّوحيد والاتِّحاد متمسِّكًا بالسُّنَّة».

❁❁❁

■ **من لا نرى له عناية بكتب السُّنَّة؛ فإنَّنا لا نثق بعلمه في الدِّين[4]:**

وقال رَحِمَهُ اللهُ[5]:

«ممَّن عرفنا بها[6] المفتي الشَّيخ وكال محمَّد، عالم، قرأ سنوات بالأزهر، وأعجبني منه أنَّني وجدته يطالع شرح تجريد أحاديث البخاري؛ فشكرت له عنايته بالسُّنَّة، وقلت له: إنَّنا نعرف عقليَّة الرُّجل من معرفتنا بالكتب الَّتي يطالعها.

فمن لا نرى له عناية بكتب السُّنَّة؛ فإنَّنا لا نثق بعلمه في الدِّين».

❁❁❁

■ **حكمته في الدَّعوة ومعاملة المخالف:**

من التَّفاصيل الَّتي ذكرها الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ عند زيارته لغليزان قال[7]:

«وكنت مشتاقًا للاجتماع بالشَّيخ سيدي الحاج العربي التّواتي... ثمَّ بلغني أنَّه سمع بنا ورآنا ولم يشأ أن يجتمع بنا؛ فعجبنا لذلك وأسفنا! ثمَّ زال عجبنا لمَّا بلغنا أنَّ في قلبه شيئًا على جمعيَّة العلماء - وقاها الله شرَّ كلِّ ذي شرٍّ -، وقلنا: ليته تنازل فاجتمع بنا فكنَّا لا نفترق بإذن الله تعالى إلاَّ على محبَّة وخير ورجوع إلى الحقِّ، ولهذا الأخ الشَّيخ العربي كتاب عندنا يعاتبنا فيه على دعوتنا للتَّوحيد ويخلط فيه بين دعاء المخلوق وطلب المؤمن الدُّعاء من أخيه، ولعلَّنا نجد فرصة لنشر هذا الكتاب والتَّعليق عليه».

❁❁❁

■ **دعوة الشَّيخ الصُّوفيَّة لتحكيم الصَّريح من الكتاب والصَّحيح من سنَّة رسول الله ﷺ[8]:**

لمَّا قصد الشَّيخ مدينة مستغانم؛ جمعه اللِّقاء بأحد أشهر

---

(2) «الآثار» - قسم الرَّحلات (297/2).

(3) «الآثار» (300/2).

(4) هذا هو ميزان العلماء الرَّبَّانيِّين خلافًا لمن يؤصِّل القواعد الباطلة دفاعًا عن الوعَّاظ والقُصَّاص وغيرهم من دعاة الفتن والتَّهييج ممَّن لا عناية لهم بالعلم النَّبوي، بل ويصف النَّاصحين بغلاة التَّجريح، فإلى الله المشتكى.

(5) «الآثار» (309/2).

(6) أي مدينة مليانة.

(7) «الآثار» (310/2).

(8) وقد لاقى الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ أصناف الأذى من الصُّوفيَّة، بل بالغوا في أذاه والتَّحذير منه حتَّى سعوا في قتله، فقد قدم قسنطينة أحد أتباع الطَّريقة العليويَّة ومبعوث منها وانهال عليه بهراوة على رأسه ثمَّ حاول طعنه بخنجر في قلبه لولا أن نجَّاه الله عزَّ وجلَّ من كيدهم، وقد قابل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا الاعتداء بالصَّفح على الجاني، انظر القصَّة الكاملة للسَّطو بالإمام الرَّئيس عبد الحميد بن باديس في «صراع بين السُّنَّة والبدعة» للشَّيخ أحمد حمَّاني.

ثمَّ يأتي بعض ممَّن ينتسب إلى الجمعيَّة في هذا الزَّمن فيقول أنَّه لم يكن هناك خلاف بين الجمعيَّة السَّلفيَّة وبين الطُّرق الصُّوفيَّة البدعيَّة تزلُّفًا وتلبيسًا، فتأمَّل الفرق بين الزَّمنين والفارق بين المنهجين.

شيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة، فألقى الشَّيخ موعظة في المحبَّة والأخوَّة ولزوم التَّعاون والتَّفاهم ونبذ الخلاف، قال رَحِمَهُ اللهُ:

«وذكرنا الدَّواء الَّذي يقلِّل من الاختلاف ويعصم من الافتراق، وهو تحكيم الصَّريح من الكتاب والصَّحيح من سنة رسول الله ﷺ».

وقال الشَّيخ ناصحًا في مجلس جمعه ببعض مشايخ الطُّرق الصُّوفيَّة:

«إنَّ جميع علماء الإسلام من المفسِّرين والمحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين وشيوخ الزُّهد المتقدِّمين تتَّسع صدورهم لأن يؤخذ من كلامهم ويردُّ إلاَّ العامة المنتسبين إلى التَّصوُّف؛ فإنَّهم يأبون كلَّ الإباء أن يسمعوا كلمةَ نَقْد أو ردٌّ في أحد من الشُّيوخ مع أنَّ غير المعصوم معرَّض للخطأ دائمًا في قوله وأفعاله، فكأنَّهم بهذا يعتقدون فيهم العصمة، وقد سُئل إمام الطَّائفة الجنيد: أوَ يَـزْني الوليُّ؟ فأطرق ثمَّ قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]، فهذا يدلُّنا على ما كان عليه شيوخ الزُّهد من تعليم النَّاس بأنَّهم غير معصومين؛ دفعًا لغلوِّ الغالين، وعلى أنَّ فكرة العصمة أو ما يقرب منها موجودة في الأذهان، وهي مثار مثل هذا السُّؤال، فلو أنَّ إخواننا المنتمين للتَّصوُّف قبلوا أن يوزن كلام الشُّيوخ بميزان الكتاب والسُّنَّة مثل غيرهم من علماء الإسلام ورضوا بالرُّجوع الحقيقي لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]؛ لبطل الخلاف أو قلَّ، فَرَضِيَ أهل المجلس هذا الكلام».

❁❁❁

طريفة للشيخ:

قال رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ أحد الشُّيوخ المنتمين إلى الطَّريق؛ لمَّا سمعني أستدلُّ بكلام الجنيد على لزوم وزن الأعمال والأقوال والأحوال والفهوم بالكتاب والسُّنَّة قال لي: «وما الجنيد إلاَّ واحد من النَّاس»، وما صار الجنيد واحدًا من النَّاس إلاَّ يوم استدللت بكلامه... ».

❁❁❁

نظرته للانتخابات والتَّحزُّب وآثارهما السَّيِّئة على الأمَّة[9]:

قال رَحِمَهُ اللهُ عند زيارته لمدينة أمِّ البواقي[10]: «قد رأيت في عدَّة بلدان سوء أثر الانتخابات بالفرقة الَّتي تركتها بين المسلمين، ولكن أقبح مظهر رأيته منها هو مظهر هاته البلدة، فهي على حزبين متعاديين متقاطعين..[11] وقد شملت هذه الفرقة طلبة العلم الَّذين ينتظر منهم إزالتها، فكانوا من صلاتها![12] ويقول هؤلاء الطَّلبة أنَّهم لو سعوا في الصلح وأظهروا تسامحًا مع العدوِّ لنبذهم قومهم وربَّما آذوهم، وهم لا يستطيعون تحمُّل الأذى في سبيل الله».

❁❁❁

تحذيره من الدَّجل والدَّجَّالين وبيانه للمعتقد الصَّحيح:

- حقيقة الولاية ومعنى الوليِّ:

قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ: «صادفت بهاته القرية[13] افتتانًا برجل جريدي ذي لباس وسخ مستقذر، زعموا أنَّه يحدِّثهم عن ماضيهم وسوابقهم، وأنَّه كان بقسنطينة معظَّمًا عند أعيانها وحكَّامها، وأنَّه من الأولياء الصَّالحين وأنَّه... وأنَّه... فألقيت على من حضر العشاء في بيت السَّيِّد الزِّغداني من القيَّاد والأعيان درسًا في بيان معنى الوليِّ، وأنَّه لا يكون إلاَّ مؤمنًا تقيًّا، وأنَّ حظَّ كلِّ أحد من ولاية الله على قدر حظِّه من الإيمان والتَّقوى، وأنَّ الإخبار عن الماضي من عمل الكهَّان، وهم ملعونون، ملعون من يأتيهم، وفارقت القرية والرَّجل فيها، فلمَّا بلغت إلى قرية أخرى كبيرة وجدت أخباره فيها عمَّا سلبه من أموالهم بالدَّجل عليهم وهم يعضُّون أصابع النَّدم على ما كان من غفلتهم وغرورهم. حاشا

(9) قال ابن باديس رَحِمَهُ اللهُ في كلمة تكتب بماء العيون لا بماء الذَّهب: «فإنَّنا اخترنا الخطَّة الدِّينيَّة على غيرها عن علم وبصيرة... ولو أردنا أن ندخُل الميدان السِّياسي لدخلناه جهرًا... ولقُدنا الأمَّة كلَّها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نَبْلغ من نفوسها إلى أقصى غايات التَّأثير عليها؛ فإنَّ ممَّا نعلمه، ولا يخفى على غيرنا أنَّ القائد الَّذي يقول للأمَّة: «إنَّك مظلومة في حقوقك، وإنَّني أريد إيصالك إليها»، يجد منها ما لا يجد من يقول لها: «إنَّك ضالَّةعن أصول دينك، وإنَّني أَريد هدايتك».

(10) «الآثار» (302/2).

(11) يقول العلاَّمة السَّلفي البشير الإبراهيمي في هذا المقام. عليه رحمة الله من ناصح إمام.: «أوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيَّات الَّتي نَجَمَ بالشَّر ناجمُها، وهجم. ليفتك بالخير والعلم. هاجمُها، وسَجَم على الوطن بالملح الأجاج ساجمُها، إنَّ هذه الأحزاب! كالميزاب؛ جمع الماء كَدَرًا وفرَّقه هَدَرًا، فلا الزُّلال جمع، ولا الأرض نفع».

(12) ومازل هذا الدَّاء يسري في كثير ممَّن ينتسب إلى السَّلفية! وكيف لو رأى هذا الإمام في زمننا من يتحدَّثون باسم السَّلفيَّة وقد صاروا أحزابًا وخاضوا حروب الانتخابات وقد أصابتهم حمَّى البرلمانات، مخالفين في ذلك سبيل أهل الحقِّ من الأئمَّة الثِّقات الأثبات، فإلى الله المشتكى منهم وممَّن يؤصِّل للدِّفاع عنهم.

(13) أي أم البواقي، انظر «الآثار» (303/2).

بعضهم ـ به، وصفة هذا الدَّجَّال أنَّه أسمر اللَّون، مربوع القامة، عريض الأكتاف، قذر الثِّياب، لهجته جريديَّة، فليكن النَّاس منه ومن مثله على حذر».

❁❁❁

منزلة بيوت الله عند الشَّيخ:

كان الشَّيخ في رحلاته حريصًا على جمع الكلمة والإصلاح بين النَّاس والدَّعوة لبناء مساجد جامعة في المدن والقرى الَّتي ينزل بها رغم ما عاناه من المنع الحكومي من إلقاء الدُّروس ببعض المدن ومع ما منيت به الجمعيَّة بمن يحاربها بالباطل ويرميها بالنَّقص والرَّذائل.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «كنت أزور في الأكثر قبل كلِّ شيء المسجد؛ لأنَّ البداءة به هي السُّنَّة ولألفت نظر الأمَّة إلى حرمة المسجد وفضله وأنَّه هو الأحقُّ بأن يقصد عند الملمَّات للوقوف بين يدي الله والحصول على أقرب أحوال العبد إلى مولاه وهي السُّجود، فإنَّ العامَّة فيما رأيت من كثير منهم يفزعون إلى البناءات المضروبة على الأضرحة ويظهرون فيها من الخشوع والخضوع ما لا أراه منهم في بيوت الله، ومن ذا الَّذي يسوِّي بيت الخالق ببيت المخلوقين، لولا انتشار الجهل وكثرة الغفلة والسُّكوت عن الحقِّ وقعود من لا يجوز لهم القعود عن التَّعليم والتَّبيين».

❁❁❁

عنايته بالتَّفسير والحديث والفقه:

وقد عني الشَّيخ في رحلاته الدَّعويَّة بعقد مجالس لتفسير كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وشرح أحاديث رسول الله ﷺ واستنباط حلول لمشاكل الأمَّة وقضاياها العامَّة.

من تلك المجالس تفسير سورة «ألم نشرح»، كما ألقى درسًا عامًّا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، وعقد مجلسًا في اسمه تعالى: «الصَّمد»، وفي تفسير مختصر سورة الفاتحة، وكذا تفسير سورة العلق، وألقى درسًا في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: 14]، ودرسًا في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ إلى ﴿فَٱصْبِرْ ⑦﴾ [سورة المدثر]، ودرسًا في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: 78]، وغيرها من المجالس الَّتي يضيق المقام عن حصرها.

وكذا حرصه الشَّديد على تعليم النَّاس ما يحتاجون إليه من أمور دينهم من أحكام الطَّهارة والصَّلاة وأعمالهما.

مع ما زيّن مجالسه بالأدب والشِّعر، منها قصيدة جميلة الوقع ألقيت بمدينة عين مليلة للسَّيِّد دنيا زيدان، تشيد بجهود الشَّيخ قال في مطلعها:

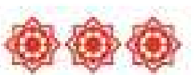
إلى فائق الأنداد مجدًا وسؤددًا
أزفُّ قصيدًا كاد أن يبلغ المدى

وممَّا قال فيها:

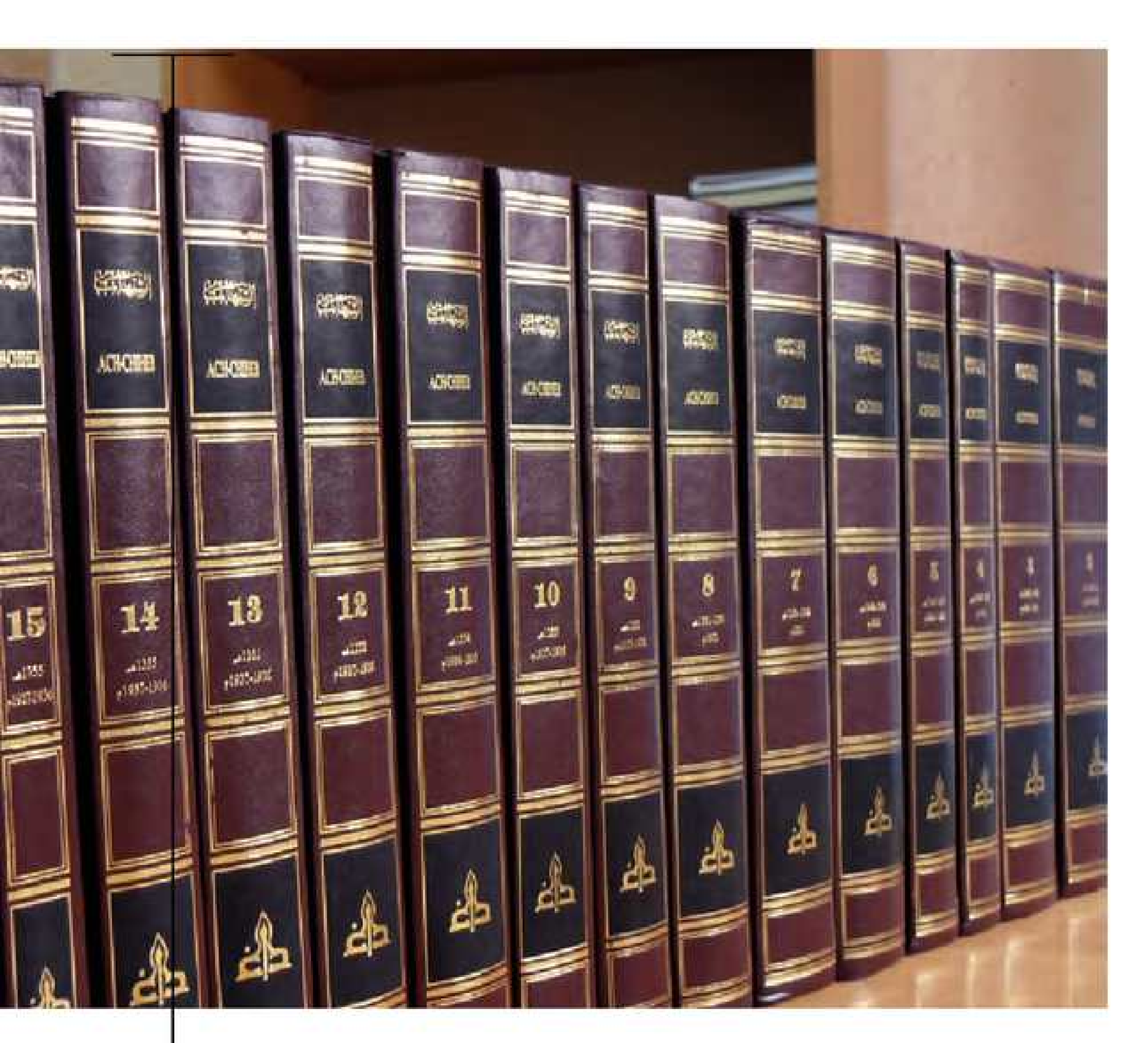
فيا لك من شيخ حكيم مفضل
نضا لخطوب الدهر سيفًا مجرّدًا
وقام بدين الله في كلِّ موقف
ينادي ألا يا قوم سيروا إلى الهدى

إلى أن قال:

فأهلاً بندب حل بلدتنا التي
تمد إلى عبد الحميد يد الندَا



وختامًا؛ فهذا جهد المقلِّ، والله أرجو عفو الزَّلل وما فاتني، من الفوائد في هذا الموطن؛ أستدركه في غيره بحول الله وتوفيقه، وأدعو العليَّ القدير أن ينفع بها من سلك سبيل الدَّعوة إلى ربِّ العالمين.



الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله ودعوته

حسن بوقليل
ليسانس شريعة . الجزائر



إن مــن ســنن الله ـ عز وجل ـ الكونية أن يــترك الإنسانُ آثارَه في الأرض بعــد موته، وكل على حسب ما قــدم في دنياه، وإن من صــلاح الرجل أن يورِّث علمًا ينتفع به، قال النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلَّا صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(1).

وإنَّ العــالم إذا قبضــه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن الأرض تُنقَص من أطرافها، قال تعــالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: 41]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: موت علمائها وفقهائها(2).

ومن علماء هــذا العصر الذين تأثرت النَّاس بموته؛ الشيخ المحدث أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله.

(1) رواه مسلم (1631).

(2) انظر: «الدر المنثور» (665/4)، «تفسير الطبري» (578/13 ـ هجر)، والحاكم (381/2)، وقال: «صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبي بقوله: «طلحة بن عمرو قال أحمد: متروك».

ترجمة الشيخ الوادعي:

هو العلاَّمة المحدِّث، المجاهد، مجدِّد الدَّعوة السَّلفيَّة باليمن: الشَّيخُ مُقبِل بن هادي بن مقبل بن قائِدة الهَمْداني الوادِعِيُّ، من قبِيلة آل راشِد رحمه الله.

ولــد الشيخ مقبــل في دماج باليمن سنة 1352هــ ـ تخمينًا ـ، ونشأ يتيمًا، فاعتَنت به والدتُه، وهيَّأته لطلب العلم منذ صغره.

طلبه للعلم:

طلــب العلمَ باليمن، ثمَّ بمعهد الحــرم المكِّي، ثمَّ بكلِّية أصول الدِّيــن بالجامعة الإسلاميَّــة انتظامًا، وبكليــة الشَّريعة انتسابًا، فحصَل على الشَّهادة العالِميَّة (الماجستير) بتحقيقه لـ«الإلزامات والتتبع» للدارقطني.

ثــمَّ أقبل على كتب السُّنــة، والتَّفسير، وكتــب الرِّجال، ينهَل منها، ويستمِدُّ منها مؤلَّفاتِه القيِّمة رحمه الله.

مشايخه:

تتَلمــذ الشَّيخ مُقبِلٌ رحمه الله علــى مشايخَ عــدَّة؛ كالإمام محمَّد ناصــر الدِّين الألباني رحمه الله، والإمام عبد العزيز بن عبد الله ابن بــاز رحمه الله، والشَّيخ محمَّد بن عبد الله الصُّومــالي رحمه الله، والشَّيخ عبــد الله بــن محمَّد بن حميــد رحمه الله، والشَّيخ محمَّــد تقي الدِّين الهــلالي رحمه الله، والشَّيــخ محمَّد الأمين الشِّنقيطــي رحمه الله، والشَّيخ حمَّاد بن محمَّــد الأنصاري رحمه الله، والشَّيخ محمَّد السبيِّل ـ حفظه الله ـ، والشَّيخ عبد المُحسِن العبَّاد ـ حفظه الله ـ، وغيرهم.

رجوع الشيخ مقبل إلى بلده:

لما أكمل الشيخ مسيره العلمي ببلاد التوحيد رجع إلى مسقط رأسه داعيًا ومعلِّمًا[3]؛ فأنشأ صرحًا علميًّا بدمَّاج أسماه (دار الحديث)، يفد إليه الطلاَّبُ من أنحاءِ العالَم، للنَّهل من معِينه الصَّافي.

وقام بالدعوة إلى الله خير قيام، ودعا إلى التوحيد ونبذ الشرك، ونصر الله به السنة، وقمع به البدعة.

وتخرَّج به علماءُ ومشايخُ فضلاءُ، خدموا الدَّعوة السلفيَّة، فنفعَ اللهُ بهم العبادَ.

مؤلفاته:

ترك الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ ثروة علمية هائلة، في فنونٍ شتى،منها:

- «تفسير ابن كثير»؛ تحقيق وتخريج، وصل إلى سورة المائدة.
- «الصَّحيح المسنَد من أسباب النُّزول».
- «الشفاعة».
- «الجامع الصَّحيح في القَدر».
- «الصَّحيح المسنَد من دلائل النبوَّة».
- «صَعقة الزِّلزال لنَسف أباطيل الرَّفض والاعتِزال».
- «السُّيوف الباترة لإلحاد الشُّيوعيَّة الكافرة».
- «رياض الجَنَّة في الردِّ على أعداء السُّنَّة».
- «الطَّليعة في الردِّ على غُلاة الشِّيعة».
- «الإلحاد الخميني في أرض الحرمين».
- «هذه دعوتنا وعقيدتنا».
- «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين».
- «تتبع أوهام الحاكم في المستدرك، التي لم ينبه عليها الذهبي».
- «الإلزامات والتتبع للدارقطني» تحقيق ودراسة.
- «المقترح في أجوبة أسئلة المصطلح».
- «الجمع بين الصلاتين في السفر».
- «شرعية الصلاة في النعال».
- «تحريم الخضاب بالسواد».
- «تحريم تصوير ذوات الأرواح».
- «رثاء الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ».

(3) فأين هم طلاب اليوم من هذا؟! يرحلون إلى بلاد شتى لطلب العلم، ثم لا يظهر لهم أثر في الدعوة إلى الله! فالله المستعان.

ثناء العلماء عليه:

لقد عرف علماء العصر قدر الشيخ مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ فأثنوا عليه بما هو أهل له، ومن هؤلاء:

1. الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فكان يصفه بقوله (أخونا الفاضل الشيخ مقبل)، كما في قوله: «وأما أهل المعرفة بهذا الفن؛ فهم لا يشكون في ضعف مثل هذا الحديث، فهذا هو الشيخ الفاضل مقبل بن هادي اليماني يقول في تخريجه على «ابن كثير» (513/1)...»[4]، وذكره أيضًا في «الصحيحة»: (13/2)، (794 ،738/6)، (386/7).

2. الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقد ذُكر له انتشار دعوة الشيخ مقبل في اليمن وغيره فقال: «هذه ثمرة الإخلاص، هذه ثمرة الإخلاص»[5].

3. الإمام ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقد قال: «الشيخ مقبل إمام»، فعارضه بعضهم بكلام يطعن به في الشيخ-؛ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشيخ مقبل إمام، الشيخ مقبل إمام»[6].

4. الشيخ صالح الفوزان -حفظه الله-؛ فقد سئل عنه فأجاب: «الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ درس في هذه البلاد في الجامعة الإسلامية، وتعلم التوحيد، وذهب إلى اليمن ودعا إلى الله، دعا إلى التوحيد، فدعوته طيبة، حسب ما سمعنا،وحسب ما ترتَّب عليها من الثمرات، نفع الله به رَحِمَهُ اللَّهُ»[7]، ووصفه بـ «عالم جليل»[8].

وفاة الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ:

توفي الشيخ يوم السبت 30 ربيع الآخر 1422هـ (2001/07/22م)، بعد صلاة المغرب في جدة، وصلي عليه في المسجد الحرام.



(4) «الضعيفة» (95/5)، وانظر (33/13).
(5) «البيان الحسن» لعبد الحميد الحجوري (ص 33).
(6) «البيان الحسن» (ص 33).
(7) «الإجابات المنهجية الجديدة».
(8) في تقديمه لكتاب «إتحاف الأمة بشرح براءة الذمة» للشهابي.

جوانب من جهود الشيخ في الرد على أهل الباطل:

كان للشيخ مقبل رحمه الله جهود كبيرة في الرد على أهل الضلال، أذكر من ذلك:

■ ردوده على الشيعة:

وكانت قدمهم راسخة في اليمن، لكن مذ ظهور دعوة الشيخ رحمه الله آلت دعوة الشيعة إلى الانحسار[9]. ومن ردوده عليهم:

- «صعقة الزلزال لنسف أباطيل الرفض والاعتزال».
- «الطليعة في الرد على غلاة الشيعة».
- «الإلحاد الخميني في أرض الحرمين».

■ ردوده على المخالفين للسُّنَّة:

وكانت كلماته فيهم كالسهم القاتل في كبد ضلالاتهم، حتى اتهموه - لضعف حجَّتهم - بالغلو، ولقبوه بأشنع الألقاب.

ومما كتب الشيخ رحمه الله في هذا:

- «رياض الجنة في الرد على أعداء السنة».
- «الرد على القرضاوي».
- «القول الأمين في بيان فضائح المذبذبين».
- «إقامة البرهان على ضلالات عبد الرحيم الطحان».

إحياء الشيخ مقبل رحمه الله لسنن مهجورة:

إن للبدع عاملاً كبيرًا في محو السُّنن، و«ما من عام إلاَّ والنَّاسُ يحيُون فيه بدعةً، ويُميتون فيه سنَّةً، حتَّى تحيا البِدَعُ، وتموتَ السُّنُنُ»[10]، وقد كان للشَّيخ مقبل رحمه الله اليد الطولى في إحياء كثير من السنن؛ منها:

- المسح على الخفَّين: فالشيعة لا يمسحون على الخفين، فانتشر ذلك بين أهل اليمن، إلى أن جاء الشيخ رحمه الله فأحيا هذه السنة.

- الصلاة على وقتها: فالشيعة يؤخرون الصلاة إلى آخر الليل، وانتشر هذا الأمر في كل بلد حكمه الشيعة، فأحيا الشيخ رحمه الله سنة المحافظة على الصلاة في وقتها.

- الصلاة في النعال: وهذه سنة مهجورة؛ فتجد الواحد يكون في الصحراء - مثلا - يصلي بغير نعل، في حين يقول النبي ﷺ «خَالِفُوا الْيَهُودَ؛ فَإِنَّهُمْ لاَ يُصَلُّونَ فِي نِعَالِهِمْ، وَلا خِفَافِهِمْ»[11]، فكان الشيخ رحمه الله يصلي في نعله.

الشيخ مقبل رحمه الله ودار الحديث بدماج:

أسسها الشيخ رحمه الله في (1399هـ) تقريبًا، وتدرَّس فيها العلوم الشرعية بمختلَف فنونها، وعلوم الآلة.

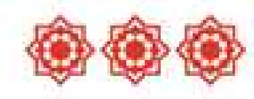
ولما توفِّي الشَّيخ رحمه الله خلفه عليها تلميذه الشَّيخ يحيى الحَجُوري.

وتعتبر هذه الدار من أبرز ما خلفه الشيخ، ولذا حرص الروافض (الحوثيون) على تدميرها، فحاصروا أهلها أكثر من شهرين، وقطعوا عنهم مؤونة العيش، وأجلبوا عليهم بخيلهم ورجلهم، وقصفوها بكل ما لديهم من أسلحة، وهذا على مرأى من القنوات العالمية ذات المصداقية المزعومة!!

ولكن الله - عز وجل - يدافع عن الذين آمنوا، فهزم الروافض الأنجاس شرّ هزيمة، وفُكَّ الحصار عن الطلبة بدار الحديث صانها الله من عمل كل مفسد خبيث.

ويمكنني القول بأن كيد الروافض لـ(دار الحديث) هو امتداد لخطتهم في الانتقام من أهل السنة عموما، ومن الشيخ المحدث مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله خصوصا.

فرحم الله الشيخ مقبلا، وأسكنه فسيح الفردوس، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء[12].



(9) وقد وصل بهم الحد إلى محاولة قتله رحمه الله.

(10) رواه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (125)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (رقم 11)، وابن وضاح في «البدع» (95) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(11) رواه أبو داود (652). انظر «صحيح الجامع» (3210).

(12) انظر في ترجمة الشيخ: «البيان الحسن بترجمة الإمام الوادعي وما أحياه من السنن» عبد الحميد الحجوري، «الإمام الألمعي مقبل الوادعي» أحمد العديني، و«تذكير النابهين بسير أسلافهم حفاظ الحديث السابقين واللاحقين» للشيخ ربيع المدخلي، «الشيخ مقبل بن هادي الوادعي ودار الحديث بدماج» معمر بن عبد الجليل المقدسي، «الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله» عبد العزيز السدحان.

رسالة في أخلاق المعلم

للشيخ محمد حياة السندي المدني

اعتنى بها: سمير سمراد

هـذه رسالـةٌ مـن رسائل المحدِّث الشَّيـخ محمَّد حيـاة ابن إبراهيـم السِّنـدي، نزيـل مدينـة الرَّسـول ﷺ المتوفـى سنـة (1163هـ)، وهي نصيحةٌ مختصرةٌ فيمـا ينبغي أن يكون عليه المعلِّم والمدرِّسُ.

ومحرِّرها عالمٌ كبيـرٌ من علماء الحديث في زمانه، انتفع به خلقٌ كثيـرٌ؛ حيث جلس للإقـراء والتَّدريس زمانًـا بالمدينة خلفًا لشيخـه المُحقِّـق: أبي الحسـن السِّنـدي الكبير محمَّـد بن عبد الهـادي (ت1138هـ)[1] بعد موته: أربعًا وعشرين سنةً[2]، وأجاز العديد من العلماء بمرويَّاته، كما هي العادة عند المحدِّثين.

ومـن أهمِّ خصـالِ الشَّيخ محمَّد حياة: الإنصـافُ والتَّجرُّدُ للحـقِّ، وهما مـن أعظم شواهد الإخلاص، وقـد كان رحمه الله حربًا على التَّقليـد والجمود المذهبي الَّذي ضـرب أطنابه في عصره، يميـل مـع الدَّليل ويعمل بالحديـث متى تبيَّن لـه، وورث عنه هذا تلاميذُه، ومنهم: الشَّيخ أبو الحسن السِّندي الصَّغير؛ محمَّد ابن صـادق (ت1187هـ)، الَّذي قال عنه الفـلَّاني في «ثبته الكبير»: «كان إمامًـا عالمًـا بالسُّنَّة وآثارها عاملاً بهـا مجتهدًا لا عصبيَّةَ فيه، قد يعمل بخلاف مذهبه فيما ظهر له فيه الحقُّ على خلاف مذهب إمامه كشيخه محمَّد حياة السِّندي»[3].

قـال فيـه المـرادي في «سلـك الـدُّرر» (292/2): «العلاَّمة الشَّهير الإمام».

وقـال في ترجمته (34/4): «العلاَّمة المحدِّث الفهَّامة حامل لواء السُّنَّة بمدينة سيِّد الإنس والجنَّة».

وقـال صدِّيـق حسـن خـان في ترجمته مـن «أبجـد العلوم» (169/3 ـ ط/ الكتب العلميَّـة): «كان مـن العلمـاء الرَّبَّانيِّين وعُظماء المحدِّثين قَرَنَ العلمَ بالعمل وزان الحسن بالحلل»، وقال: «وشـدَّ حزامه على درس الحديث النَّبـويِّ وأفنى عُمرَه في خدمة الكلام المصطفوي».

وعـدَّهُ في كتابه «الحطَّة» في جملة المجدِّدين للدِّين، على رأس القرن الثَّاني عشر الهجري[4].

مصدرُ الرِّسالة:

نُشرت هذه الرِّسالة في أحد المواقع على «الشَّبكة العنكبوتيَّة»، ولم يذكُـر ناشرُهـا مصدرَها، ويظهر أنَّهُ مـن «تونس»، وقد قام علـى نشر (بعض) رسائـل «الشَّيخ محمَّد حيـاة» الَّتي بِحيازته، لغرض من الأغراض!.

والرِّسالـةُ تقـعُ في صفحتين، كلُّ صفحة مـن: (18) سطرًا تقريبًا، مكتوبة بالمداد الأسود ونحوٌ من كلمتين بالأحمر، وخطُّها واضحٌ.

تاريخُ نسخها: سنة (1163هـ)، واسمُ النَّاسخ: عبد الله ابن محمَّد، نَسَخَهَا بالمسجد النَّبوي.

(1) هو صاحب الحواشي على الكتب السِّتَّة، انظر ترجمته في «سلك الدُّرر في أعيان القرن الثَّاني عشر» (66/4).

(2) «سلك الدُّرر» (34/4).

(3) «فهرس الفهارس» للكتَّاني (149/1).

(4) انظر: «الحطَّة في ذكر الصِّحاح السِّتَّة» (269 ط/ علي الحلبي).

■ نصُّ الرِّسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله القائـل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة :5]، وأمره أحقُّ بالامتثال، والصَّلاة والسَّلام على رسوله المخـبر بأنَّ على النِّيَّة مبنى الأعمال[5]، وآله وصحبه الَّذين فازوا بالاحتساب في الأفعال.

أمَّـا بعد: فاعلم - يا أخي - أنَّـه ينبغي للإنسان أن يكون تعلُّمه العلـم وتعليمـه إيَّـاه لله تعالى، يريـد بهما وجه الله تعـالى والعمل بمقتضاه، فإنَّه[6] بلا عمل وبالٌ على صاحبه.

ويسعى في تعلُّم ما يجهل ممَّا يقرِّب إليه تعالى وما يُبعِّد عنه.

وتعليمه مَن لا يعلمه.

□ وللإخلاص علاماتٌ، منها:

أن لا يحسدَ مَن هو فوقه ومَن هو مثلُه، ولا يحقر مَن دونه، ولا يفرح بكثرة تلامذته وأهل درسه وأتباعه من حيث إنَّهم منتسبون إليه، ولا يغتمَّ بكثرة تلامذة غيره، ولا بجاهه، ولا بإظهار صيته، ولا ينكر فضله، ولا ينكر سماع مكارمه.

ولا يكره ذهاب تلامذته إلى غيره لطلب العلم، بل يفرح بذلك ويحثُّهـم على طلـب العلم من صغير وكبـير، ولا يهجُر منهم مَن فعـل ذلك، ولا يمنع عنه التَّعليـم؛ لأنَّ العلم أمانة الله تعالى عند العلماء، وطلبته أهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النِّساء : 58]، وقـال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ [سُورَةُ آل عِمْرَان]، والعـبرة لعموم العلَّة لا لخصوص السَّبب.

فمَـن طلب أمانتَه مـن غيره لا يستحقُّ الهجـر بل يشكر، ولا يمنع عنه أمانته إذا طلبها.

وطالـبُ العلم المخلـص متقرِّبٌ إلى الله تعـالى به، ومَن كره التَّقـرُّب إليـه تعالى، أو منعـه أمانته لأجله - أي لأجـل كرهه -[7]، فقد باء بإثم عظيم.

ولا يغضبُ ولا يهجر ولا يمنع العلـم إذا آذاه تلميذه ولو (...)[8] في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران : 128]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران : 154]، ويتذكَّر أنَّ رسول الله ﷺ لم يضـرب أحدًا مـن نسائه وجواريه وخدمـه[9]، ولم يقل لخادمه أنس ﵁ أُفٍّ قطُّ[10]، ولم يكن كلُّ أمره كما يحبُّ، وأنَّه لم ينتقم لنفسه قطُّ[11]، بل كان يعامل أشدَّ المؤذين بأحسن الملاطفة، وهكذا كان السَّلف الصَّالح وهم القوم الَّذين يقتدى بهم.

وقـلَّ من يُرى من أمثالنا موصوفًا بهذه الأوصاف، بل عادتنا الحسـد والحقـد والعـداوة والمنع والهجـر، والتَّكلُّـم في الأقران والتَّفـوُّق عليهـم والغيرة على التَّلامذة كغـيرة الضَّرائر بعضهنَّ على بعض.

وينبغي للعالم إذا ساق الله تعالى إليه الطَّلبة أن يرى المنَّة له إذ سـاق إليه مَن يكون سببًـا لخلوص ذمَّته من الأمانة، والتَّقرُّب إليه تعالى، والزِّيادة في العلم، ورفع الدَّرجة.

ويشكر الطَّلبة على ذلك إذ كانوا أسباب ثوابه في مآبه، و«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّه»[12].

وقد أمر النَّبيُّ ﷺ بالاستيصاء بهم خيرًا[13].

ويعاملهم معاملة الأخ الصَّادق، ولا يرى نفسه أعلى منهم بل يراها أدناهم، ولا يرى له منَّةً عليهم بل يرى المنَّة لله تعالى عليه، ولا يُريد منافع الدُّنيا لئلاَّ يصيرَ مستبدلاً الأدنى بالأعلى.

اللَّهـمَّ إنَّا نعـوذُ بك [من علم][14] لا ينفـع، وعلِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا.

مؤلِّف هذه الكلمات محمَّد حياة السِّندي المدني عفا الله عنه».

تمَّت هذه الرِّسالة في المسجد النَّبوي في المواجهة والشَّبكة[15]، ﷺ، على يد عبد الله بن محمَّد سنة 1163.

(5) يشير إلى الحديث المرويِّ في «الصَّحيحين»: «إنَّمَا الأعمَالُ بالنِّيَّات».

(6) أي: العلم.

(7) زيادة كتبت في الحاشية.

(8) طمسٌ في أوَّل الصَّفحة الثَّانية.

(9) يشير إلى حديث عائشة ﵂، قالت: «ما ضرب رسولُ الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده ولا امرأةً ولا خادمًا إلاَّ أن يجاهد في سبيل الله...» الحديث، رواه مسلمٌ (2328).

(10) يشير إلى حديث أنس ﵁ قال: «خدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سنين والله مَا قال لي أفًا قَطُّ ولا قال لي لِشَيْءٍ لمَ فَعَلتَ كذا وهَلاَّ فعلت كذا» الحديث، رواه البخاري (5578)، ومسلمٌ - واللَّفظُ له - (2309).

(11) يشير إلى حديث عائشة ﵂ قالت: «مَا انتقَمَ رسولُ الله ﷺ لنَفْسِه إلاَّ أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله عَزَّ وَجَلَّ» الحديث، رواه البخاري (6288)، ومسلم - واللَّفظ له - (2327).

(12) هو نصُّ حديثِ النَّبيِّ ﷺ رواه أحمد (11280/ط الرِّسالة)، والتِّرمذي (2021) من رواية أبي سعيد الخدري ﵁، قال التِّرمذي عقبه: «وفي الباب عن أبي هريرة والأشعث بن قيس والنُّعمان بن بشير. هذا حديثٌ حسنٌ»، انظر: «الصَّحيحة» (667).

(13) يشير إلى حديث أبي سعيد الخدري ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ وَإنَّهُمْ سَيَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ فَإِذَا جَاؤُوكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا» رواه التِّرمذيّ (2650، 2651)، وابن ماجه (249)، وضعَّفه الشَّيخ الألباني في: «ضعيف الجامع» (1797).
لكن حسَّن الشَّيخُ الحديثَ بلفظ: «سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ وَاقْنُوهُمْ»؛ قلت - محمد ابن الحارث - للحكم: ما اقْنُوهم؟ قال: علِّمُوهُمْ. رواه ابن ماجه (247)، انظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (203).

(14) زيادة يقتضيها السِّياق.

(15) يريد: واجهةَ قبر النَّبيِّ ﷺ وشُبَّاكَهُ، ثمَّ إذا أراد بذلك التَّبرُّك فهذا من البدع المحدثة!





يرجى إرسال طلب يتضمن الأمور التالية:

- الاسم واللقب.
- العنوان.
- الهاتف.
- الوظيفة.
- وصل الحوالة البريدية.

ترسل الحوالة البريدية باسم توفيق عمروني على الحساب البريدي الجاري:

ccp 4142776 clé 96

●●●

العنوان: دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو. المحمدية. الجزائر

الأفراد: 900 دج - المؤسسات 1000 دج



الإصلاح في ثلاث مجلدات من العدد (1) إلى العدد (18)

يطلب من دار الفضيلة للنشر والتوزيع بسعر (1800 دج) شامل لمصاريف الشحن

كلمة في عيد الحب!(*)

إبراهيم بن حليمة
إمام خطيب. الجزائر العاصمة

قالوا: إنَّ عيد الحبِّ قريب!

قلت: سبحان ربي! وهل بات للحبِّ عيد؟ إنّ هذا لشيء عجيب!

نظروا إليّ نظرة استصغار، بل نظرة احتقار، قالوا: أعائش أنت في زماننا؟ أوَأظلّتك الحضارة التي أظلّتنا؟ أم أرضُك وسماؤك غير أرضنا وسمائنا؟ وزمانك وحضارتك غير زماننا وحضارتنا؟

قلت: إي والله، إنني لأعيش بينكم، ولست أختلف وإيّاكم في شيء مما ذكرتموه، لكنما أتعجب مما أحدثتموه.

قالوا: ففيم العجب أيها الرجل؟ دع عنك هذه الوساوس الرجعية، وحيّا هلاّ بيننا تستمتع معنا، وتُعايِن هذه الحضارة العظمى من قريب!

قلت: عفوًا، فإنني في شك مما تدعونني إليه مريب.

وإني سائلُكم عن هذا العيد الذي دعوتموني إليه؛ أأصيل هو أم دخيل؟ أم أنكم تسلكون لإشباع غرائزكم كل سبيل؟

ألم تعلموا ـ والإسلام شرعتُكم ـ أن الإسلام من هذا الغيِّ بريء؟ وعن هذا السَّفه نزيه؟ ومتى كان أعداء الحبّ يُعلِّموننا

(*) ويدعى عيد القسِّيس «فالنتان» (valentin)، وهو من أعياد النَّصارى، وتاريخه يرجع إلى الرُّومان، وظلَّ موجودًا فيهم بعد ما اعتنقوا النَّصرانيَّة وهو ممثل في القدِّيس «فالنتان» الَّذي استشهد! بزعمهم في سبيل الحبِّ والسَّلام، ويسمِّيه بعضهم «عيد العشَّاق»، واعتبر القسِّيس «فالنتان» شفيع العشَّاق وداعيهم، وشعارهم في هذا العيد الَّذي يوافق يوم الرَّابع عشر من فبراير كلَّ سنة ميلاديَّة:

- إظهار البهجة والسُّرور فيه.
- تبادل الورود الحمراء الَّتي ترمز إلى الحبِّ.
- توزيع بطاقات التَّهنئة به، وفي بعضها صورة «كيوبيد» وهو طفل له جناحان يحمل قوسًا ونشابًا، وهو إله الحبِّ عند الرُّومان الوثنيِّين.

[التحرير]

كيـف نحبُّ؟ ومتى نحبُّ؟ إنّ مشاعرَنـا ـ والزّمانُ شاهد ـ تتفسح في قلوبٍ رحبةٍ رحابة البسيطة في مبناها، واسعةِ الأرجاء مبثوثةِ الفُرُشِ ـ على مرّ الأيـام ـ ترحب بالحبيب متى أتاها، على أننا لا نحـب من هـبّ ودبّ، ولا نفتح أقفال قلوبنا لـكل ماجن وماجنة، يعبـث فيها بغير حـق ويسرح في مروجها بـدون إذنٍ فتلك صنعة المُجّان، وإنما هي خالصة لأزواجنا محرمة على الأخدان، ومهما احتالوا على دخولها فأنى لهم وهيهات، ولولا ذاك لما كان السَّكَنُ إلى الأزواج وجعلُ المودّة والرّحمة بينهم من جملة الآيات.

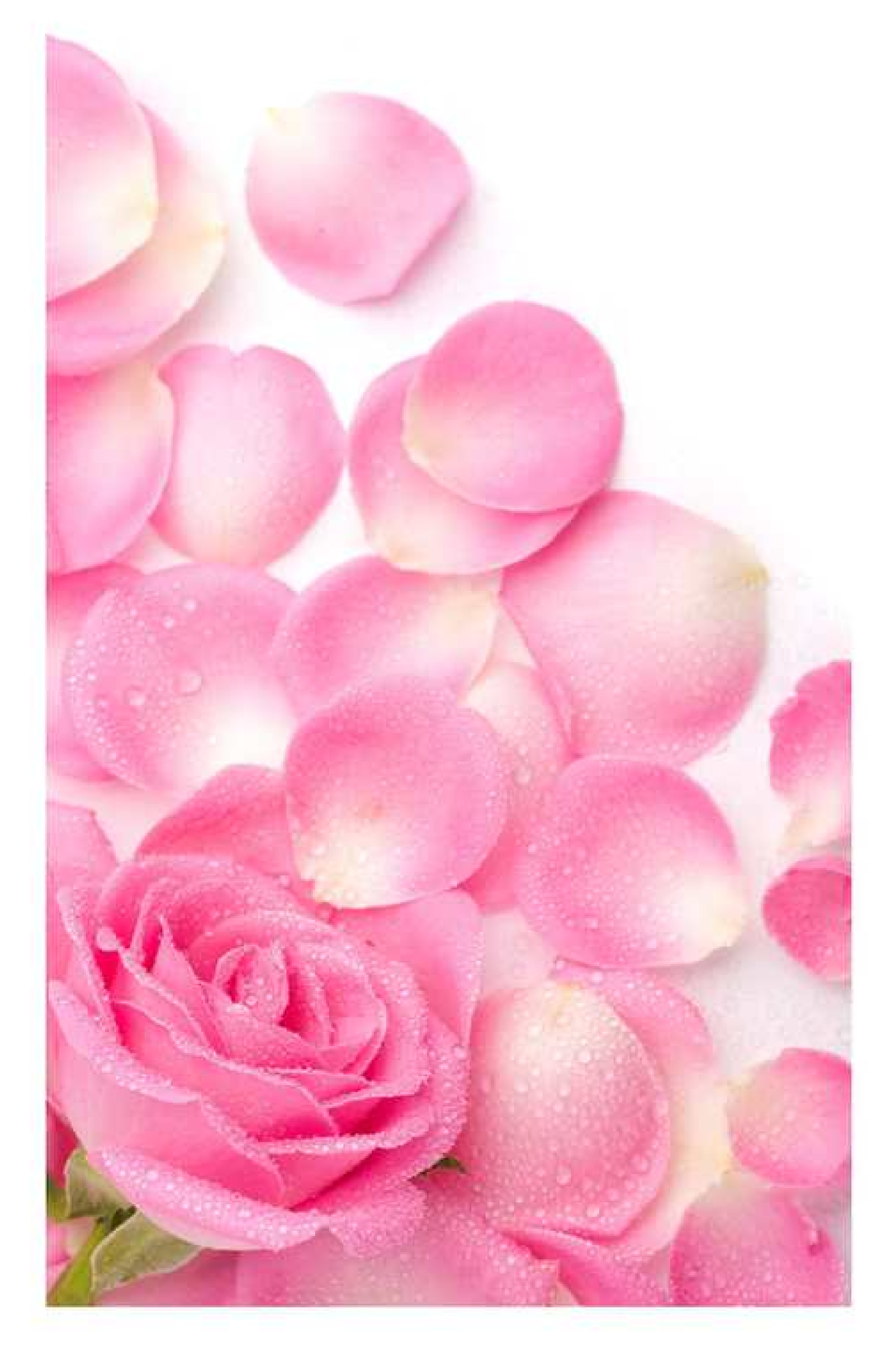
وهـا أنتم أولاء أدخلتم أنفسكـم في جُحرِ ضبٍّ ضيّقٍ نتِنٍ قد سبقكـم إليه إخوان القـردة والخنازير، فحجّـرتم على أنفسكم واسعـاً، وحصرتم الحـب في يوم واحد كما حصـروه، وأبصرتم النّور الواسع من ثقب ضيّق كما أبصروه.

كيـف سمحتم لأنفسكـم، ورضيتم لأنبـل مشاعركم، وأطهر أحاسيسكم أن يعبث بها أعداء الطُّهر وقَتَلة العفّة؟ إنهم يريدون **أن يجرّوكم ـ بسعيهم الخبيث ـ إلى مشنقة الفضيلة فهل أنتم لهم مستجيبون؟!**

أيهـا المسلمـون، إن الإسلام جـاء بكل معنى سـام من طهر وعفـة، وحب وفضيلة، وعلـم وتزكية... وهلم جـرًّا، فعلّم البشر الفضائل في أسمى معانيها، وأبهرهم بالحضارة التي هو بانيها، فـلا غـرو أن أقبلوا على بحره يستخرجون منـه اللؤلؤ والمرجان، معترفين بفضل الإسلام عليهم في إيقاظهم من سُباتهم الطويل الذي ضرب على آذانهـم في العصور الوسطى سنين عددًا، فلما أفاقـوا من رقدتهم ونمنـا، وانتعشوا بتراثنا وعنـه نحن رغبنا، صـار الذَّنَـبُ رأسًـا والرّأسُ ذنَبًـا، وأمسى أكثرنا يحـدق إليهم ببصره فاتحًـا فاه مشدوها، معتبرًا التقـدم والتحضّر في كل ما جاء من قِبَلهم، ولو كان في ديننا مرفوضًا.

أيها المسلمون! إنّ دينكم جلب لكم العزة والقيادة، وحقق لكم النصر والسيادة، وألبسكـم لباس الحُبور والسعادة، فاستبدلتم ـ حينمـا ابتغيتـم العـزة في غـيره ـ باءَ المهابـة نونـاً، وأضحكتم سِفلـة القوم علـى أنفسكم ملء أشداقهـم، ورضيتم بالدُّون بعد أن كان أسلافُكـم ـ بإيمانهـم ـ الأعلَيْن، فهـلاّ رجعة صادقة لهذا الدّيـن، وتمسّكًا متينًا بأسباب العزِّ والتّمكين، وبراءةً صادقةً من الأخسرين الأذلّين.

عفوًا أيهـا العيد! فإنك عن ديارنا غريـب ومن ديننا طريد، فـلا حللـت أهلاً ولا نزلت سهلاً، لقد زاوجـت ـ حينما أتيت ـ بين الخنا والفجور، والزّنـا والخمور، وكلٍّ مشين في فلك هذه المعاني يـدور، فـأيُّ خير منك ومـن أهلك جلبنـاه؟ وأي ثمـر طيّب من أرضـك جدَدْناه؟ إنما جَـذَاذُك العلقم والمُرّ، وحصـادُك السّوء والشّر، فعُد من حيث أتيت لامرحباً بك سائر الدّهر.



عثمان عيسي

الوفاء.. خلق مفقود



إنَّ من تمام شكر الله جل وعلا، شكر الناس على ما أسدوه من معروف، والإقرار لهم بالجميل، وهذا شيء مفطور في النفوس، مجبولة عليه القلوب، فالناس يميلون ميلا طبيعيا إلى المحسن، والألسنة والأفئدة تتحرك إليه بالشكران، وقد جاءت الشريعة السمحة وأقرت بهذا الموجود في الفطر السليمة التي لم تتلوث، فدعت إلى شكر الناس، وجعلته من تمام شكر الله جل وعلا، قال ﷺ: «إنَّ أشْكَرَ النَّاسِ للهِ أشكرُهُم للنَّاس»[1].

ذلك أن الاعتراف بالفضل لأهل الفضل وذويه، من خصال الكرام، المعروفين بجميل الرعاية، وحسن العهد، وهو خلق متفرع - عند علماء الأخلاق والسلوك - عن خلق الوفاء، وهو بدوره مرتبط بالدين والأمانة ارتباطا وثيقا، إذ الوفاء من جملة تحمل الأمانة والقيام بشأنها وأدائها على وجهها، وهي من خصال المؤمنين حقًّا، وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يشيد بها في خطبه، التي كان يعلم الناس فيها ما فيه صلاحهم وإصلاحهم في الدارين، فعن أَنَس ابن مالك رضي الله عنه قال: ما خَطَبَنَا نَبيُّ الله ﷺ إلاَّ قال: «لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ»[2].

■ والوفاء في لغة العرب يدور معناه على الأداء والإتمام، وهو في الشرع الحنيف «ملاَزَمَةُ طَرِيقِ المُوَاسَاة، ومُحافظةُ العُهُود، وحفْظُ مَرَاسِمِ المحَبَّةِ والمُخَالَطَة سِرًّا وَعَلاَنِيَةً، حُضُورًا وَغَيْبَةً»[3]، فهو خلق سامي القدر، عظيم الفائدة، لا يكون إلا من كبار النُّفوس، التي امتلأت حبًّا للخير، وإيثارًا له، وحرصًا على إيصاله للنَّاس، وهو دليل على الصِّدق، وأمارة على المروءة والشَّهامة، ينبئ عن صفاء السَّريرة وسلامتها.

■ فالوفيُّ نقيُّ الصَّدر، صحيح الضَّمير، ذو نبل بين النَّاس، وهو صاحب وجدان حيٍّ، ونزعة نفسيَّة حرَّة وأبيَّة، قد انتقل بقلبه وجوارحه - طوعًا - من حمأة الجفاء والجحود والنكران إلى روضة الوفاء والإقرار والعرفان.

■ إن الوفيَّ ترى أثر وفائه فيمن يعاشره ويخالطه، من والدين، وولدان، وأقارب، وزوجة، وجيران وخلاّن، فهو دائم الوصال لهم، صادق المحبة والمودة معهم، يرتاحون إلى حديثه وكلامه، ويطمئنون لرأيه ومشورته ونصحه، ويأنسون لرفقته، ويبتهجون لمجالسته وصحبته، يُسقون لذة روحية لا يعرف كنهها إلا مَن ذاق طعمَها ممن رُزق وُدًّا خالصا من الدرن، وأعطي محبةً صافية من الكدر، ويُحرمها كلُّ ختّال مَذَّاع سقيم العهد سخيف الذمّة، ممن لا يرعى في معاشرته إلاّ ولا سببا!

■ وللوفاء صور شتى، وأشكال متنوعة:

□ أسماها وأعلاها ما كان فيه وفاء لحق الله جل وعلا على العباد، وذلك بتحقيق العبودية له كما يحب ويرضى، فيعلم العبد أن ما يأتيه من الخالق جل وعلا يوجب عليه الحمد والشكر، ولله تعالى فيه النعمة والفضل، وأن ما يأتي من العبد لربّه ومولاه - على جهة العبادة - يوجب منه الاعتذار بسبب النقص الملازم للمخلوق، وما كان من الناقص فهو ناقص لا محالة، فالعبد مع إحسانه تراه دائم الاعتذار لربه، مسيئ الظَّن بنفسه، شاهدًا عليها بالتَّقصير والنّقصان، شاهدًا لربِّه بكماله، قد استحق أعظم ممَّا قدمه إليه من طاعته، فلا يرى ما يتقرَّب به إليه صالحا يواجه ويقابل به ربَّه ومولاه[4]، فينتابه بذلك شعور وإحساس بالعجز عن أداء شكر ربِّه حقَّ الأداء، وهذا من صدق العبد ووفائه.

□ ومن صوره: الوفاء بحقِّ المخلوق، وأخصُّ بالذِّكر هنا أحقَّهم وفاءً على النَّاس وهو النَّبيُّ الكريم ﷺ، سيد الأوَّلين والآخرين، الدَّاعي إلى صراط الله المستقيم، أمرَ الله تعالى بطاعته، وجعل فيها الهداية إلى كلِّ بر وخير في الدنيا والآخرة، وطريقا موصلا إلى رضوانه وجنّته، وفي مخالفته ومشاقته في

(1) صحيح لغيره. رواه أحمد (21846)، والبيهقي في «الشعب» (9120).
(2) حسن. أحمد (12383).
(3) «الموسوعة الفقهية الكويتية» (93/44).
(4) انظر: «مدراج السالكين» (324/2) - بتصرف وزيادة -.

الدنيا الفتنة والضلال والهلاك والصغار، وفي الآخرة المصير إلى النار وبئس القرار.

وإن الوفاء بحقه يقتضي الوفاء بسنته من بعده من أن يُزادَ فيها أو يُنقص، أو ينتحلَها المبطلون، أو يحرِّفَها الغالون، أو يُحدثَ فيها أهل الأهواء والبدع ما هم مُحدثون!.

وأثنِّي بورثة النبي ﷺ في الوفاء بحقهم، وهم علماء الشريعة الربانيون، مصابيح الهدى، ذوو الأحلام والنهى، أحدُ صنفي ولاة الأمور، تولوا بيان الشريعة للناس ودعوتهم إليها، والدفاع والذبّ عنها، قد جعل الله طاعتَهم تابعةً لطاعته وطاعة نبيه ﷺ، يهتدي الخَلق بهم في أمور دينهم ودنياهم، فهم أسدُّ رأيا وأقوم قِيلا.

فينبغي الوفاء بحق العلماء - والجِلّة والكبار منهم خاصّة -، وحفظه لهم، لأن هذا شأن المنتسب - بحقٍّ - للنَّبيِّ ﷺ وسنَّته وأهلها، قال ﷺ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا»[5] يعني حقَّه، وهذا صنيع المحب والشاكر لهم، المثني عليهم، ممن عرف قدرهم، وشهد بفضلهم، فلزم ركبهم، وصدر عن رأيهم، لا يجاوزه إلى آراء غيرهم من الرجال، ولو كان ممن بفكره وعقله في الشريعة صال وجال.

■ إن الجحود والنكران لأهل العلم، خسّةٌ وهوان، وممَّا يسمع ويقرأ ما يبث في بعض وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، وما يكتب في بعض مواقع الإنترنت، من الطعن في العلماء السلفيين، والردّ عليهم - بالجهل والجهالة والباطل - بأقلام ران على قلوب أصحابها ران الإعجاب بالرأي، والانفراد به، والاغترار بالنفس، والاعتزاز الخاطئ بها، حتى أضحت نموذجا للطغيان الفكري، ومثالا للضلال العلمي، راح ضحيتَه أوّلا المُعجَب برأيه نفسُه، ثمّ ثانيا مَن تابعه على غيّه وضلاله، ممَّن يقلّده بغير علم ولا حجة ولا كتاب منير!

قال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية والقصد في الفقر والغنى والعدل في الغضب والرضا»[6].

وقال ﷺ: «لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب»[7].

وكلما ازداد سمك الحاجب عن الإدراك عميت البصيرة عن إبصار الحق على ما هو عليه - أو كادت تعمى - ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج].

وبلوغ هذه الحال من الصعوبة والخطورة على صاحبها بمكان، لأن ما كان محتملا لوجهي الحق والباطل، - مما يسميه بعضهم تلبيسا: «مسائل الاجتهاد» - للخروج من التقيّد بأقوال العلماء الربانيين الراسخين في العلم! - قد انقلب عند مَن هذه حاله، إلى فكرة راسخة في الذهن، عالقة بالقلب، يصعب زعزعتها، قد أمست عقدية (عقد قلبه عليها) فوالى عليها وعادى عليها، ألبسها ثيابَ الحق في تصوره ونظره القاصر، فعسر تنحيتها وإبطالها، ولو كانت في حقيقة الأمر - وعند العلماء الكبار - من الباطل، وبينها وبين الصواب مفاوز ومنازل.

■ إن من النعم العظيمة في ديننا الحنيف: صحة الفهم وحسن القصد، وتحري الصواب، وهي ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 25]، وإنّ من النقم الخطيرة الجسيمة ما يقابل ذلك من: فساد الفهم، واتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب المحمدة من الخلق، وترك تقوى الله، واتباع الباطل، والضلال والغي[8]، ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58].

■ إن الوفي بحق لا يغيره الزمان ولا المكان:

□ أما الزمان فبما يجيء فيه من متغيرات ومستجدات، من مختلف المسرات والمضرات التي قد تأسر قلبَ مَن يعبدُ ربَّه على حرف! عن رؤية مواطن الاختبارات والامتحانات والابتلاءات، وهي دائرة بين النعم والنقم.

فإنّ مَن خوَّله الله نعمةً من عنده فظن أنه أهل لها ومستحق، فهذا ممن عَدَّ المحنةَ منحةً وهو لا يدري، وما ذلك إلا فتنة له، والأمرُ كما قُدّر - كونًا - على وفقه يجري، قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الزمر]، وقال جل وعلا: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الأنبياء].

□ وأما المكان فبما أدخل الناس عليه من تاء التأنيث، فانصبَّ اهتمامهم بالمكانة، وسعيهم لتحصيلها، أكثر من الاهتمام بها عند الخالق جل وعلا، فحسنت مكانة بعضهم عند الخلق - ولو بالتزلف والتملق والكذب والزور والنفاق وسوء الأخلاق -، ولم يراوحوا مكانهم عند الخالق! ، مثلهم مَثل من لم يرفع بالسنة رأسا، ولا تسمع لهم في الذبّ عنها وعن أهلها - بحق - صوتا ولا همسا!

فكم بين هؤلاء وبين أهل الصِّدق والحقِّ والوفاء من تفاوت فارجع البصر كرتين إن أردت رفع الشك باليقين، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود].

والحمد لله رب العالمين.

(5) رواه أحمد (22755)، وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (101).

(6) حسن. «الصحيحة» (1802).

(7) حسن لغيره. «صحيح الترغيب والترهيب» (2921).

(8) انظر: «إعلام الموقعين» (1/87). بتصرف وزيادة..



واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

كيف يقلُّ الاختلاف

قال الإمام ابن القيِّم:

«فالواجبُ على الجميع أن ينقادوا إلى كلمَة سوَاء بينَهم كلُّهم، وأن لا يُطيعوا إلَّا الرَّسول، ولا يجعَلوا معَه مَن يكونُ أقوالُه كنُصوصِه، ولا يتَّخذ بعضُهم بعضًا أربابًا من دون الله؛ فلو اتَّفقت كلمَتُهم على ذلكَ، وانقادَ كلٌّ واحد منهُم لمن دعاه إلى الله ورسوله، وتحاكموا كلُّهم إلى السُّنَّة وآثار الصَّحابة لقلَّ الاختلافُ، وإن لم يُعدَم منَ الأرض؛ ولهذا تجد أقلَّ النَّاس اختلافًا أهلَ السُّنَّة والحديث؛ فليسَ على وجه الأرض طائفةٌ أكثَر اتِّفاقًا وأقلَّ اختلافًا منهُم لما بنَوا على هذَا الأصل، وكلَّما كانت الفُرقَة عن الحديث أبعَدَ كان اختلافُهم في أنفسهم أشدَّ وأكثَرَ، فإنَّ مَن ردَّ الحقَّ مَرجَ عليه أمرُه واختَلطَ عليه، والتَبَس عليه وجهُ الصَّواب فلَمْ يَدرِ أينَ يذهب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥﴾ [ق]».

[«إعلام الموقعين» (173/2)]

فيل التصوُّف

قال الشيخ مبارك الميلي:

«وكلَّما انتشرت التَّرجمة عن اليونان ازداد التَّصوُّف نموًّا؛ وبالجملة إنَّ فيل التصوُّف كلَّما وجَّهته نحو مكَّة أو المدينة برك، وكلَّما وجهته نحو أثينا أو القسطنطينية نهض مهرولا، ومن سلم من الهوى والتَّقليد الأعمى كفاه هذا البيان، وإلَّا فما أضيع البرهان عند المقلِّد».

[«آثار الشيخ مبارك الميلي» (296/1)]

خطورة موالاة أعداء الشَّريعة

قال ابنُ عقيل: «إذا أردتَ أن تعلمَ محلَّ الإسلام من أهل الزَّمان، فلا تنظُر إلى زِحَامهم في أبواب الجوامع، ولا ضَجيجهم في الموقف بـ«لبَّيك»، وإنَّما انظر إلى مُوَاطَأتهم أعداءَ الشَّريعة».

[«الآداب الشَّرعية» لابن مفلح (237/1)]

كيف تستصغر البلاء

قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «مَا نَزَلَ بِي بَلَاءٌ فَاستَعْظَمْتُهُ، فَذَكَرْتُ ذُنُوبِي إِلَّا اسْتَصْغَرْتُهُ».

[«العقوبات» لابن أبي الدُّنيا (88)]

أصل العداوات

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «أَصَبْنَا أَصْلَ كُلِّ عَدَاوَةٍ: اصْطِنَاعُ المَعْرُوفِ إِلَى اللِّئَامِ».

[«معجم ابن المقرئ» (947)]

الإكثار من ذكر الله

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ المبَارك: «كَمْ مِنْ مَرْكُوبٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهِ وأَطْوَعُ للهِ وأَكْثَرُ ذِكْرًا».

[«شعب الإيمان» (4825)]

دُرَر من كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة

■ «وأهـلُ الاستقامة والاعتدال يُطيعـون اللهَ ورسولَه بحسب الإمـكان، فيتَّقـون الله ما استَطاعـوا، وإذا أمَرَهـم الرَّسولُ بأمرٍ أتَـوا منـه ما استَطاعـوا، ولا يتركُون ما أُمروا بـه لفعلِ غيرهم ما نُهِيَ عنه، بـل كما قال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة : 105]، ولا يُعاونون أحدًا على معصية، ولا يُزيلون المنكرَ بمـا هو أنكرُ منه، ولا يأمرونَ بالمعروف إلَّا بالمعروف؛ فهم وَسَطٌ في عامَّة الأمور، ولهذا وصفَهم النَّبيُّ ﷺ بأنَّهم الطَّائفة النَّاجية لمَّا ذَكَر اختلافَ أُمَّته وافتراقهم».

[«جامع المسائل». تحقيق: محمد عزير شمس (3/90،91)]

■■■

■ «إنَّ ضلالَ بَنـي آدمَ وخطَأَهُم في أُصُولِ دينهم وفُرُوعه إذا تأَمَّلتـه تجـدُ أكـثَرَهُ مـن عـدَم التَّصديـقِ بالحـقِّ؛ لا من التَّصديقِ بالباطلِ».

[«مجموع الفتاوى» (20/105)]

■■■

■ «إنَّ الألفـاظَ في المُخاطَبَـاتِ تكونُ بحَسَـبِ الحاجَـات؛ كالسِّلاحِ في المُحارَبَاتِ».

[«مجموع الفتاوى» (4/107)]

■■■

■ «من عرف مَا أَمَر اللهُ به، ومَا نهى عَنهُ، وعملَ بذلكَ؛ فهُو الوَليُّ للَّه، وإن لم يقرَأ القُرْآنَ كُلَّه، وإن لم يُحسِن أَن يُفتيَ النَّاسَ ويَقْضي بَينهم».

[«مختصر الفتَاوى المصريَّة» (ص:559)]

■■■

■ «إنَّ متابعـةَ النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين في أعمالهم أنفعُ وأولى مِن مُتابعَتِهم في مساكِنِهم، ورؤيَةِ آثارِهم».

[«اقتضاء الصراط المستقيم» (1/268)]

■■■

■ «الكاظِمُ للغَيْـظ والعَافي عن النَّاس قَـد أحسَنَ إلى نفسه وإلى النَّـاس؛ فـإنَّ ذلكَ عَملَ حسَنَةً مع نفسِـه، ومع النَّاس؛ ومَنْ أحسَنَ إلى النَّاسِ فإلَى نَفْسِه».

[«مجموع الفتاوى» (30/364)]

■■■

■ «ومَـن استَقـرأَ أحوالَ العالَم تبيَّنَ لـه أنَّ اللهَ لم يُنعِم على أهلِ الأرضِ نعمَةً أعظَمٍ من إنعامه بإرساله ﷺ، وإنَّ الَّذين ردُّوا رسالتَه هُم مَن قَال الله فيهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [سورة إبراهيم]».

[«الجواب الصَّحيح» (5/88)]

■■■

■ «مَـن أحسَّ بتَقْصـيرٍ في قولِه أو عمَلِه أو حالِـه أو رِزْقِه أو تَقَلُّـبِ قَلْبٍ؛ فعلَيـه بالتَّوحيدِ والاستغفار ففيهمَـا الشِّفاءُ إذا كانَا بصـدقٍ وإخلَاصٍ؛ وكذلـكَ إذَا وجَد العبـدُ تَقْصـيرًا في حُقُوقِ القرابـةِ والأهْلِ والأَوْلادِ والجيرانِ والإخْـوَانِ؛ فعليه بالدُّعاءِ لهُم والاستِغفَارِ».

[«مجموع الفتاوى» (11/698)]

■■■

■ «الحسَنَـة الواحـدةُ قَـد يقتَرن بهـا مِن الصِّـدق واليَقين مـا يجعلُها تكفِّـر الكَبائـر، كالحديث الَّذي في صاحـب البطاقة الَّـذي يُنشَر له تسعةٌ وتسعـونَ سجلًّا، كلُّ سجلٍّ منها مدَّ البَصر، ويُؤتـى ببطاقة فيهَا كلمةَ «لا إلهَ إلَّا الله» فتُوضَع البطاقةُ في كفَّة، والسِّجلَّاتُ في كفَّـة، فثَقُلت البطاقَةُ وطاشَـت السِّجلَّات، وذلك لعظَـم ما في قلبه منَ الإيمانِ واليقـين، وإلَّا فَلو كانَ كلُّ مَن نطقَ بهذه الكلمة تُكفَّر خطاياه لم يدخُل النَّارَ من أهل الكَبائر المؤمنين، بـل والمنافقين أحدٌ، وهـذَا خلاف ما تواتَرت بـه الآياتُ والسُّنَن، وكذلـك حديث البَغيِّ، وإلَّا فليسَ كلُّ مَن سقَى كلبًا عطشَانًا يُغفَر لـه، كمـا أنَّه قَد يقـتَرن بالسَّيِّئة مـن الاستخفـاف والإصرار ما يعظِّمُها؛ فلهذَا وجَبَ التَّوقُّفُ في المُعَيَّن، فلا يُقطَع بجنَّة ولا نار إلَّا ببَيَانٍ منَ الله، لكن يُرجى للمُحسِن، ويُخاف على المُسيء».

[«مختصر الفتَاوى المصريَّة» (ص:577)]

■■■



▪ إلى الأخ طاهر بن عبد القَادر براهمة ـ حفظه الله ـ وهو إمام أستاذ بمسجد بلال بن ربَاح بالمشريَّة ولاية النَّعامة له منَّا الشكر الأوفى على رسالته التي حملت معها شهادة شكر وتقدير وعرفان لجميع المشرفين والقائمين على مجلَّة الإصلاح، والدُّعاء لهم بالخير، كما حوَت رسالتُه مقالةً وجيزةً ضمَّنها التّنبيه على بدعة لا زالت تنتشر في مساجد مختلفة في بلدنا وهي الذّكر الجماعي دُبر الصَّلوات المفروضة؛ فجزاه الله خيرا على حرصه على السُّنَّة وذبِّه عن الشَّريعة، ووفَّقه الله لمزيد من الخير والعلم النَّافع.

▪ والشُّكر الجزيل موصول إلى الأخ لوصيف إبراهيم ابن محمَّد العيد ـ وفَّقه الله ـ من قرية الزقم حساني عبد الكريم بمدينة الوادي على رسالته التي تقدَّم فيها باسمه وباسم جميع أهل قريته بأحر التَّحايا وأصدقها، ودعا لكلٍّ من أسهم في مجلة الإصلاح بالتَّوفيق والسَّداد وإنارة الدَّرب، بارك الله فيه على حسن ظنِّه بإخوانه.

▪ جزى الله خيرا الأخ المكرَّم د. عبد الكريم ـ سدَّده الله ـ من الجزائر العاصمة على اقتراحه أن نفرد عددًا خاصًّا بالطُّرق الصُّوفيَّة وبيان ضلالاتها وانحرافاتها والتَّحذير منها، ليكون النَّاس على بيِّنة من أمرهم، وهي أيضا أمنيتُنا، نسأل الله أن يحقِّق آمالنا.

▪ كما نشكر الأخ الكريم ناصر ساحة ـ وفَّقه الله ـ من مدينة الجلفة على قصيدته المسمَّاة: «الثَّناء الفاخر على بلاد وأعلام الجزائر» من بحر البسيط في ستة عشر بيتًا، يقول في مطلعها:

أحلى سلام لك منِّي يا وطني أيا جزائر الخيرات واليُمن

ويقول في بعض أبياتها:

والإبراهيمي وابن باديس كلٌّ
هُمْ دعاةٌ في الرَّخاء والمحنِ
وآلُ خليفةَ الصِّنديدُ ذاك الَّذي
قد قاوَمَ الظُّلمَ بالشِّعر والشَّجن
فلتَفخري يا جزائرُ فمَن غيْرُك
أنجَبَ كمثلهم من مصر أو يمن

▪ ونشكر الأخ العزيز علي بوقفالة ـ حفظه الله ورعاه ـ، وهو مدرِّس بابتدائية ببلدية منَّاعة دائرة مجدَّل، بمدينة المسيلة على مراسلته لنا وشكره لنا، ولعلَّ اقتراحه سيلبَّى إذا رأى المجلَّد الرَّابع للمجلَّة، والله الموفِّق.

▪ وكذا الأخ الحبيب مصطفى بن عمَّار ـ سدَّده الله ـ من بلدية تاجنانت من مدينة ميلة، له منَّا جزيل الشُّكر على رسالة الشُّكر والتَّقدير الَّتي بعث بها إلينا، حمَّلها معاني الدعاء بالتَّثبيت والنُّصرة والتَّأييد للقائمين على المجلَّة، وخاطبنا بلسانه ولسان كلِّ السَّلفيِّين ببلديَّته، وفَّقنا الله جميعا لمرضاته، وجعلنا من حمَلَة سنَّة نبيِّه ﷺ الذَّابين عنها.

▪ ونشكر الأخ الكريم مصطفى عكرمي ـ وفَّقه الله ـ من منطقة جندل بمدينة عين الدفلى، على مراسلته، فجزاه الله خيرًا.

▪ وأمَّا الأخ الفاضل زين الدِّين بن عمر ضيف الله ـ حفظه الله ـ من القيقبة برأس العيون بمدينة باتنة فقد بعث إلينا برسالة لطيفة بثَّ فيها أشجانَه وبعض ما يجول في خاطره، وما يحمله في نفسه من الحبِّ والودِّ لإخوانه القائمين على المجلة، وشغفه بها، فله منَّا جزيل الشُّكر، والله نسأل أن يؤيدنا جميعا بتوفيقه.

▪ وتبقى سلسلة الشُّكر مسحوبة لنلفَّ بها الأخ الحبيب نبيل عبدلي ـ سدَّده الله ـ من مدينة سكيكدة الذي بعث إلينا رسالةً شحنها بعبارات الشُّكر والثَّناء وحسن الظَّنِّ بإخوانه، فاللَّهم لا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون.

▪ وتحت عنوان: «كلمة مشارك» جملة من العبارات الرَّقيقة الَّتي تدلُّ على نبل صاحبها وصدق مشاعره، ونحن بدورنا نقدِّم شكرَنا وهو الأخ المكرَّم مختار زاوي ـ وفقه الله ـ من تخمارت بمدينة تيارت؛ والله الهادي إلى سواء السبيل.

▪ ▪ ▪